عـــود الـنـــد

مجلة ثقافية فصلية

ISSN 1756-4212

الناشر: د. عدلي الهـواري

عـود الـنـد تبدأ عامها السابع عشر

العدد الفصلي 25: صيف 2022

هنري لايمان ساين

صكوك الغفران: تجارة لم تنقرض

بحوث :: نصوص :: أخبار ثقافية

المحتويات

عدلي الهواري **4**
صكوك الغفران: تجارة لم تنقرض

هشام البستاني.. .. .. **7**
بحثٌ نظريّ لممارسة سياسيّة ممكنة

فراس حج محمد.. .. .. **27**
أحوال الاسم بين المصروف والممنوع من الصرف والمبني

د. علي بوفلجاوي. **33**
من صناعة العربية إلى ملكتها في الفكر الخلدوني

فنار عبد الغني. **47**
عروس القدس: شيرين أبو عاقلة

د. فراس ميهوب **50**
عندما اشتعل الحريق

زكي شيرخان.. .. .. **53**
إحباط

شفاء داود **58**
شاي الزنجبيل

رحيل الشاعر مظفر النواب.. .. .. **67**
القدس عروس عروبتكم

إصدار جديد بالإنجليزية: جهان حلو. **68**
المرأة الفلسطينية: المقاومة والتغيرات الاجتماعية

إصدار جديد: محمد سعيد دلبح.. .. .. **69**
المسكوت عنه في التاريخ: فصائل السلام

مختارات: بيان نويهض-الحوت. **70**
الشهيدة ندى أبو غنيمة-اليشرطي

مختارات: هشام البستاني.. .. .. **73**
الكيانات الوظيفية

صخر **76**
خدمة مجانية لتدقيق وتشكيل النصوص

عن لوحة الغلاف. **77**
الفنان هنري لايمان ساين

هدية العدد. **78**
كتاب المجلات الثقافية الرقمية

الصفحة الأخيرة. **79**
عود الند تبدأ عامها الـ 17

عدلي الهواري

كلمة العدد الفصلي الخامس والعشرين

صكوك الغفران: تجارة لم تنقرض

لا فرق بين من يميز ضد المسلمين في دول ذات أغلبية غير مسلمة، وبين من يميز أو يريد التمييز ضد المسيحيين في الدول ذات الأغلبية من المسلمين، واستكثار الترحم على موتاهم، واعتبار التعامل معهم منّة. مهما تم تجميل الأسس التي يبنى عليها هذا الرأي، تظل حقيقة الأمر أنه يروج للتمييز بين أبناء الوطن الواحد وبني البشر عموما. لا توهم نفسك أنه يجوز لك أن تميز في بلدك ضد فئة من الناس لأسباب دينية أو عرقية، ولا يجوز لغيرك في دول أخرى أن يميز ضدك لأسباب مشابهة.

لا تخلو دولة عربية من مسيحيين، ولا تخلو دولة في العالم من بعض المسلمين من السكان الأصليين أو المهاجرين. كيف يجوز أن تنتقد معاملة المسلمين في بلد غير مسلم، وتريد أن تعامل أبناء بلدك غير المسلمين كأنهم أغراب، ولو كان الأمر بيدك لفرضت الجزية عليهم أو العيش في معازل؟ هذه الأفكار الطائفية البغيضة تفقد المسلمين، مثل غيرهم، الثقة في الجماعات والأفراد الذين يروجون فهما ضيقا للدين وطائفية بغيضة.

نحن الآن في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين. ولا يعقل أن يتم تصنيف الناس والتعامل معهم على أساس دينهم، لأن الملتزمين مئة في المئة بدينهم غير موجودين في هذا العالم، حتى وإن ظنوا أنهم كذلك. ولو كان هناك من له نمط حياة يعتبره تطبيقا حرفيا للدين، فهذا اختياره الشخصي. ولا يعقل أن تعتبر فئة نفسها على صواب وكل من لا يشبهها في ضلال، ولا يحق لها ذلك.

ومن الواضح أن المتاجرة بصكوك الغفران لم تنقرض، بل يستغل تجارها الجدد كل فرصة تسنح لهم، فإذا انتقل إلى رحمة الله مسيحي أو مسيحية يخرجون إلى العلن ليروجوا بضاعتهم، ويكون ذلك بقولهم إنه لا يجوز الترحم على غير المسلمين أو الاستغفار لهم.

ونسمع أقوالا كهذه في فترات احتفالات المسيحيين بعيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وفي هذا السياق، تأخذ المتاجرة شكل النهي عن تهنئة المسيحيين بأعيادهم.

وعندما يتعلق الأمر بصفة شهيد، يستسهل المتاجرون بصكوك الغفران القول إن المسيحي لا يمكن اعتباره شهيدا. لكن هذه النقطة لا تقتصر على المسيحيين، بل هي أوسع، وليست أمرا جديدا، فأثناء ذروة المقاومة الفلسطينية في السبعينيات، كان هناك من المسلمين من لا يعتبر المقاتلين الذين يضحون بحياتهم شهداء. وهذا الأمر لم يختف بعد، ففي حال مقتل جنود جيش عربي، يظهر من يصفهم بالشهداء، ومن يعتبر أنهم ليسوا كذلك.

عندما اغتالت إسرائيل ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية في لبنان عام 1974، وهم كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار، من كان سيحترم حركة المقاومة وينتمي إليها لو اعتبرت النجار وعدوان شهيدين وكمال ناصر ليس شهيدا؟ وعندما يكون في جيش بلد ما جنود مسلمون وآخرون مسيحيون، ويخوض هؤلاء معركة ويقتلون فيها، لا يعقل أن تعتبر الدولة القتيل المسلم شهيدا، والمسيحي غير شهيد.

لا يجوز في عصرنا هذا أن يكون التعامل بين الناس على أساس الدين الذي

ينتمون إليه، علما بأن هذا الانتماء قد يكون قويا وقد يكون اسميا فقط. فإذا كان جارك مسيحيا، التصرف الطبيعي هو أن يهنئك بعيدك وتهنئه بعيده، وأن يعزيك ويواسيك إذا فقدت عزيزا، والعكس صحيح.

وفيما يتعلق بالاستشهاد، وبالنظر إلى أن مسلما يمكن أن يخرج ليعلن أن مسلما آخر ليس شهيدا، يبدو جليا أن البعض يريد أن يختص بإصدار صكوك الاستشهاد والغفران، وتشجيع الناس على عدم التصرف وفق اللائق إنسانيا، والمنسجم مع كون بني البشر متساوين.

في حالة فلسطين تحديدا، هذه الطائفية الكريهة لا مكان لها، لأن فلسطين قضية كل أصحاب الضمائر الحية، الذين يرفضون الاحتلال وإخضاع الشعوب للتطهير العرقي والتنكيل والتفرقة العنصرية. كل من يضحي بحياته من أجل فلسطين فهو شهيد. المجد لكل من استشهد من أجلها في الماضي، ولكل من سيستشهد في الحاضر والمستقبل.

هشام البستاني

خـطـاب أزمة النفوذ المزمنة، والتقويض الفعّال، في المنطقة العربيّة

بحثٌ نظريّ لممارسة سياسيّة ممكنة

الموضوع أدناه الجزء الأول من ورقة قدمها الكاتب في مؤتمر أقيم في جامعة لندن للاقتصاد (LSE) تحت عنوان «جرامشي في الشرق الأوسط» يومي الاثنين والثلاثاء، 10-11 أيار (مايو) 2022. جرامشي هو المفكر الإيطالي، أنطونيو جرامشي، الذي ناهض الفاشية في إيطاليا بزعامة موسيليني، وقد سجن وتوفي في السجن، حيث كتب مساهماتهم الفكرية. ستنشر «عود الند» الجزء الثاني والأخير من الورقة في العدد القادم (26: خريف 2022).

في مقدّمته لمقالة «الأمير الحديث» الواردة ضمن أوّل ترجمة موسّعة لمختاراتٍ من أعمال أنطونيو جرامشي إلى الإنجليزيّة، يقول المترجم لويس ماركس إنّ جرامشي استخدم في الدّفاتر التي كتبها طوال فترة سجنه التي امتدّت لأكثر من عشر سنوات، وأدّت إلى قتله البطيء، مُصطلح: «فلسفة التّفعيل» (Philosophy of Praxis)، ليشير بشكل مُبطّن إلى الماركسيّة، فلا يفهمها الرّقباء والسجّانون، وآثر المترجم، من ثمّ، أن يُعيد المصطلح إلى أصله داخل النصّ الإنجليزيّ(1).

لم يتّفق كوينتِن هور وجيفري نويل سمِث مع هذا الرّأي في تقديمهما لترجمةٍ لاحقةٍ لمختاراتٍ أوسع من أعمال جرامشي، فهما يقولان: «[مصطلح] ‘فلسفة التّفعيل’ يمثّل شيئين معًا: توريةً عن الماركسيّة؛ ومفهومًا مستقلًّا استخدمه جرامشي ليُعرّف ما رآه الخاصيّة المركزيّة في فلسفة الماركسية: الرّابط الذي تؤسسه بشكلٍ لا يمكن فصله بين النّظريّة والممارسة، بين الفِكر والفِعل»(2).

هذا الفهم الثّاني هو الأقرب إلى ما يمثّله جرامشي كمُفكّرٍ مُمارسٍ ثوريّ، عبّر عمليًّا، وطوال مسيرة حياته القصيرة (توفي وهو في السّادسة والأربعين من العمر(3))، عن إخلاصه لمفهوم الفِعْل كعنصرٍ أساسيٍّ في ثنائيّة لا تنفصم عراها: نظريّة-مُمارسة، معتبرًا إيّاهما شيئًا واحدًا، دون أن يَغفل عن انتقاد مَن ينتقص مِن أهميّة الإطار النّظريّ في سياق المُمارسة، ودون أن يتجاهل دور المُمارسة باعتبارها الإطار التّجريبيّ الاختباريّ للأفكار من جهة، والمختبر الذي تتولّد فيه الأفكار وتتطوّر وتأخذ أهميّة تاريخيّة من جهةٍ أخرى، فالمُمارسة تُغيّر العالم، وتُغيّر المُمارسين أنفسهم، وبالتّالي فإنّ المعرفة هي عمليّة تحوّلٍ مُستمرٍّ مرتبطةٍ بالتّاريخ، عمليّةٌ تاريخيّةٌ لا مكان فيها للتّوقّف والانسحاب إلى الخلف للتّأمّل البطيء، فالموضوع المدروس يتحرّك في اللّحظة التّالية ويصبح —بمعنىً ما— شيئًا مختلفًا.

يكتب جرامشي: «يمكن للمرء أن يتنبّأ بالصرّاع فقط، لا بفصوله الفعليّة، فهذه الأخيرة ستكون مُحصّلةً لقوىً متعارضةٍ في حركةٍ دائمة، يستحيل اختزالها إلى كميّات محدّدة، ففي الحركة يتحوّل الكمّ دائمًا إلى نوع»(4). كان هذا نقده لعلم الاجتماع الذي تستند تنبّؤاته فقط إلى المعلومات والقياسات التي تمثّل لحظةً في التّاريخ، وليس التّاريخ نفسه في تحوّلاته التي لا تتوقّف، هذه التّحوّلات التي لا تُدرَك حقًّا إلا بالممارسة، بالفِعْل؛ يستطرد جرامشي: «يمكن للمرء التّنبُّؤ، بمقدار ما يفعل، وبمقدار ما يقوم به من جهدٍ طوعيٍّ يساهم من خلاله، بشكلٍ جذريّ، بخلق النّتيجة المُتنبّأ بها. يكشف التنبّؤ عن نفسه إذًا لا كممارسةٍ علميّةٍ في إطار المعرفة، بل من خلال التّعبير المجرّد للجهد الذي

يقدّمه المرء؛ من خلال الطّريقة العمليّة لخلق إرادةٍ جماعيّة»(5) تقوم بدورها، وفي الواقع، بتغيير النّتيجة المُتنبّأ بها؛ أي: تغيير التّاريخ.

في هذه الملاحظة، يبدو جرامشي، حاله حال مجموعة من المُفكّرين المُمارسين الثّوريّين الآخرين، مثل روزا لوكسمبورج وفرانز فانون، راهنًا، وتبدو ملاحظاته التي سنتناول بعضها أدناه بالإشارة والتّعليق والنّقد، مفيدةً جدًّا في سياق التّحوّلات التي تمرّ بها منطقتنا العربيّة، بشعوبها المسحوقة، وانتفاضاتها المُتتالية، التي تتجسّد فيها «أزمة النّفوذ» التي سنأتي عليها لاحقًا، وشخّصها جرامشي بدقّة: «القديم يحتضر، والجديد لا يمكن له أن يولد؛ في فترة الخلوّ هذه، تظهر أشكال هائلة من الأعراض المرضيّة الفظيعة»(6). استنادًا إلى هذا التشخيص، سأقدّم أيضًا نقاشًا يستشرف المستقبل، ويطرح بدائل ممكنة للتفعيل، والتنظيم، والتحشيد، والهويّة، تهدف إلى تجاوز العناصر التي تعيق التغيير من خلال تقويضها عبر بناء المساحات السياسيّة المحرّرة، خارج تلك التي تسيطر عليها الدّولة/السّلطة، لتشتبك مع هذه الأخيرة من موقعها المستقلّ.

هيمنة السّلطة من خلال مُجتمعين: المجتمع السّياسيّ والمجتمع المدنيّ

تأسيس منظور واضح لمفهوم «الدّولة» هي نقطة بداية مفيدة لفهم الكيفيّة التي وصلنا بها إلى أزمة النفوذ المزمنة في المنطقة العربيّة، والكيفية تستمرّ بها هذه الأزمة. لتحقيق ذلك، سأناقش، وأدمج، فيما يلي من فقرات، معالجة ماكس فيبر وجرامشي لموضوع الدولة.

الدّولة عند جرامشي هي إطار هيمنة، تفرض السّلطة فيه سيادتها من خلال «مُجتمعين»: المجتمع السّياسيّ، وتتمثّل فيه القوّة الإكراهيّة العُنفيّة المباشرة مثل الجيش، والشّرطة، والقانون، والقضاء، والنّظام التّعليميّ الرّسمي؛ والمجتمع المدنيّ (وهو غير المصطلح المعروف اليوم الذي يشير حصرًا إلى عالم «المنظّمات غير الحكوميّة») ويشمل الأحزاب، والنّقابات، والصّحافة، والجمعيّات، والمؤسسات الدينيّة، ومجمل الأنشطة «الخاصّة» (private) النّاشئة عن

المبادرات الذّاتيّة أو شبه الذّاتيّة، والمستقلّة نسبيًّا عن السّلطة، ويتمثّل فيها شكلٌ أعمق تأثيرًا وأكثر ديمومةً حين يتعلّق الأمر بإخضاع المجتمعات وإبقائها في حالة من «الاستقرار»، يأخذ حالة الاقتناع بالسّلطة وبفائدتها، ويعمل على نسج روابط ضمنيّةٍ وعميقة، تتحوّل من خلالها السّلطة إلى مصلحةٍ وضرورةٍ لبقاء المجتمع الذي تتسلّط عليه.

هناك العديد من الأمثلّة الدالّة على تلك الروابط الإخضاعيّة، لكنّي سأقدّم مثالًا تطبيقيًّا محدّدًا، هو الاشتراط القانونيّ على أي مجموعةٍ اجتماعيّةٍ تريد أن تشارك أو تُساهم في العمل السّياسيّ الطّلب من الدّولة، أو إشعارها، للسّماح لها بممارسة أنشطتها، ووضع نفسها تحت إشراف الدولة ورقابتها، والتّقيّد بتعليماتها المدوّنة في الدّستور والقانون، واشتقاق شرعيّة وجودها منها؛ ومن خلال مِنَح تمويل الدّولة للأحزاب المشروعة، ومشاركتها في الانتخابات البرلمانيّة (لأنّها مشروعة، إذ يحظر القانون مشاركة الأحزاب غير المرخّصة/غير المشروعة)، ونجاحها في الحصول على مقاعد، تتحوّل الأحزاب إلى عناصر في الدّولة، ويصير بقاؤها ونفوذها وإمكانيّات توسّعها معتمدةً على الدّولة، فيصير الحزب مُدافعًا عن بقاء الدّولة/السّلطة بعد أن وقع فعليًّا، وبآليّاتٍ ضمنيّة، تحت هيمنتها، وكذلك الأمر في كلّ قطاعات المجتمع المدنيّ، إذ تتحوّل هذه الأخيرة إلى أدواتٍ لتعميق هيمنة السّلطة، وإلى تحصيناتٍ قويّة لها، ويمكننا هكذا أن نفهم ملاحظة جرامشي التّالية: «بعض الأحزاب السّياسيّة تؤدّي وظيفة شُرَطيَّة»(7)؛ وأن نفهم ملاحظاته حول النّسق الذي تعمل بواسطته النّقابات العمّاليّة داخل إطار الرّأسماليّة، إذ «تُنظّم العمّال لا باعتبارهم مُنتجين، بل باعتبارهم مأجورين، أي بكونهم نتاج التّنظيم الرّأسماليّ للملكيّة الخاصة، وباعةً لعملهم الخاصّ»(8)، واضعةً إيّاهم داخل إطار الهيمنة الرّأسماليّة، لا خارجه، مثلما تضع الأحزاب نفسها داخل إطار هيمنة الدّولة-السُّلطة، لا خارجه.

بهذا الأمر تحديدًا: اتّساع الهيمنة من خلال المجتمع المدنيّ، يُفسّر جرامشي فشل الثّورات في أوروبّا الغربيّة بداية القرن العشرين، رغم أنّها مهد الصّناعة

والرّأسماليّة والطّبقة العاملة الصّناعيّة، ونجاحها في روسيا (المتأخّرة عن ركب التّحوّلات الرّأسماليّة)، «ففي روسيا، كانت الدّولة [المجتمع السّياسيّ] هي كلّ شيء، وكان المجتمع المدنيّ بدائيًّا وهُلاميًّا. في الغرب، كانت هناك علاقات تامّة بين الدّولة والمجتمع المدنيّ، وعندما اهتزّت الدّولة، فإن أساسًا متينًا من المجتمع المدنيّ ظهر في الحال. كانت الدّولة مجرّد خندقٍ أماميّ، يتموضع خلفه نظامٌ قويٌّ من الحصون والمتاريس»(9).

واضحٌ من تعليق جرامشي أنّ الهيمنة النّاتجة عن نشاط المجتمع المدني، وارتباطه الضّمنيّ والعميق بالسّلطة، أهمّ بكثيرٍ من القوّة الإكراهيّة التي لا يمكن لها أن تحمي الجبهة الدّاخليّة، بل العكس: تخلق التّوتّرات والاستقطابات، في حين تعمل الهيمنة النّاتجة عن نشاط المجتمع المدنيّ على خلق استتبابٍ ذاتيّ للأمر، وتمسّكٍ بالدّولة، ينبع ظاهريًّا وبديهيًّا من داخل المجتمع، لصالح السُّلطة.

تنشأ «أزمة النفوذ» عند جرامشي (والتي يسميّها أحيانًا: «أزمة الهيمنة») عندما لا يعود الجمهور مقتنعًا بأهميّة وشرعيّة سلطة الدولة، ليظهر شرخ «أيديولوجيّ» بين الاثنين فاتحًا إمكانيّات التغيير.

بالنسبة لماكس فيبر، تتعرّف الدولة من باب احتكارها لممارسة العنف أو القوّة الإكراهية، ضمن حدود نطاق سياسيّ معيّن، وقدرتها على ادّعاء، وتحقيق، شرعيّة قانونيّة لذلك الاحتكار وتلك الممارسة.

رغم أن مفاهيم جرامشي وفيبر المتعلّقة بالدولة مفيدة، إلا أنها تقصّر عن عالمنا المعاصر، ورأسماليّته المعولمة، إذ تتحرّك فيه القوى الدوليّة، وتفعل، وتتحدّد فيه علاقات القوّة، على المستوى العالميّ لا المحليّ فقط. من ذلك المنظور، يمكننا ملاحظة أن بعض الدول تمارس العنف، سواءً سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو عسكريًّا، على «دول» أخرى، الأمر الذي يقوّض من سيادة واستقلال هذه الأخيرة بدرجاتٍ متفاوتة. عند توسيع المفهوم الفيبريّ حول احتكار ممارسة العنف ليشمل المستوى الدولي، سنجد أن الدول ليست متساوية بهذا المعنى.

من جانب آخر، يمثّل تحقيق الهيمنة ركنًا مهمًّا من أركان الدولة، والهيمنة

تستلزم وجود وفعاليّة المجتمعين، السياسيّ والمدنيّ. كما ورد معنا، يعتبر جرامشي أن المجتمع المدنيّ المكتمل النمو يساهم بشكل أكبر في هيمنة الدولة وتماسكها، وبشكل أكبر من الدور الذي يلعبه المجتمع السياسيّ في السياق نفسه. ولكن في بعض «الدول»، خصوصًا تلك التي خلّفها الاستعمار جنوب العالم، يعاني المجتمع المدنيّ من ضعف شديد أو أنه —عمليًّا— غير موجود، إذ أنه يُهاجم بشكل مستمرّ من قبل المجموعات الحاكمة لأنها ترى فيه منبعًا لمن قد يهدّد احتكارها للسّلطة. في مثل هذه «الدّول»، سنجد وجودًا قويًّا وشبه حصريّ للمجتمع السياسيّ، القوّة الإكراهيّة، فيما تغيب القوّة الإقناعيّة، أو هي ضعيفة تمامًا، فتسيطر الأولى بالعنف، ولا تتحقّق الهيمنة التي تكتمل بالإقناع.

مفهوم «الكيانات الوظيفيّة»: مقدّمة مكثّفة

في كتابي الكيانات الوظيفيّة: حدود الممارسة السياسيّة في المنطقة العربيّة ما بعد الاستعمار(10)، يتم التفريق بين الدولة الفيبريّة المُهيمنة، وبين ما أسميّه: الكيان الوظيفيّ، واللذان يشكّلان طرفي مروحة واسعة من الحالات البينيّة التي هي الكيانات السياسيّة في عالمنا المعاصر. تقول أطروحتي الرئيسيّة إنه في عالمٍ مُعَولم، لا يمكن فهم الهيمنة أو احتكار ممارسة العنف وشرعيته من خلال منظور محليّ. يوضّح الكتاب كيف أنّ بمقدور الدولة الفيبريّة المهيمنة في عالمنا المعاصر، وإلى حدّ كبير، ردع التدخّل السياسيّ-الاقتصاديّ في شؤونها، و/أو التدخّل في شؤون كيانات سياسيّة أخرى، بينما لا يقدر الكيان الوظيفيّ على مثل هذه الأمور التي غالبًا ما تُمارس عليه.

في ذات السياق، وبسببٍ من مجتمعها المدنيّ القويّ، تتمكن الدولة الفيبريّة المهيمنة من تحقيق الهيمنة داخليًّا، ومدّ هيمنتها خارجيًّا بواسطة برامج المساعدات والهيئات المانحة وأذرع سياسيّة شبيهة أخرى. على العكس من ذلك، ولكون مجتمعاتها المدنيّة ضعيفة جدًّا، أو غير موجودة عمليًّا، فإن الكيانات الوظيفيّة هشّة بالمعنيين المحليّ والعالميّ، خصوصًا فيما يتعلّق بالوظائف أو

الأدوار التي تقوم بها، والمرتبطة بتوازنات القوى الدوليّة والإقليميّة. الكيان الوظيفيّ هو هيكل سياسيّ تستخدمه مجموعته الحاكمة لتعزيز بقائها، وإضعاف، واحتواء، وتفكيك المجتمع المدنيّ باستخدام وسائل مثل التشظية الاجتماعيّة والهويّاتيّة، من أجل منع صعود أية منافسين محتملين. النتيجة هي حالة مزمنة من الأزمة، وضعف الجبهة الداخليّة، وإمكانيّة التدخّل الخارجيّ، والتكيّف المستمرّ مع الوظائف والأدوار المطلوبة إقليميًّا ودوليًّا، وكلّها تساهم بتكريس دائرة التبعيّة والوظيفيّة وتعميقها.

تعتمد استمراريّة الكيانيّة الوظيفيّة على الإبقاء على حالة من التوازن المتوتّر بين وظائف خارجيّة وأخرى داخليّة كثيرًا ما تكون متناقضة. تمثّل المجموعة الحاكمة في الأردن مثالًا على ذلك، إذ يعتمد بقاؤها على توازن دقيق بين وظيفة خارجيّة تتعلّق بكونها جزءًا من المحور الأميركيّ-الإسرائيليّ وبسعيها للبرلة اقتصاد البلاد (ضارّ لها داخليًّا) ووظيفة داخليّة تتعلّق بتعميقها للزبائنيّة لضمان شكل من أشكال الدعم والشرعيّة الداخليّين لها (تتعارض مع وظيفتها الخارجيّة).

ثمّة أمور أخرى إضافيّة بالطبع، تضاف إلى هذا المخطّط العام، تفرّق بين الدول الفيبرية المهيمنة والكيانات الوظيفيّة، وهذه تتضمّن: الدور المحوريّ للقوى الاستعماريّة (الخارجيّة) في إنشاء الكيانات الوظيفيّة وهويّاتها، على النقيض من مجموعة العوامل الداخليّة (الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة) التي أدّت إلى نشوء الدول الفيبرية المهيمنة؛ وجود مؤسسات الحكم وسيادة القانون في هذه الأخيرة بينما لا نجد في الأولى إلا هياكل خاوية ديكوريّة الطابع بدلًا من «المؤسسات»، بينما لا تحظى القوانين والدساتير بمكانة عليا.

ثمّة فاعليّة محليّة مفقودة إلى حدٍّ كبير في نشوء الحدود السّياسيّة للكيانات الوظيفيّة ومجموعاتها الحاكمة، مقابل فاعليّة داخليّة كبيرة تتجادل مع الفواعل الخارجيّة في حالة نشوء الدّول الفيبرية المهيمنة، تجعل هذه الأخيرة مرتبطةً بفواعلها الدّاخليّة بشكل أكبر، فتعمل على تنضيد الفواعل الخارجيّة بما

يتّسق ومصالح فواعلها الداخليّة، بينما ترتبط الكيانات الوظيفيّة بمجموعاتها الحاكمة، المرتبطة بدورها بالفواعل الخارجيّة بشكل أكبر، فتُدار الفواعل الداخليّة بما يؤمّن تنضيدها مع مصالح الفواعل الخارجيّة.

ليس من أغراض هذا التّفريق المفاهيميّ بين الدّولة الفيبرية المهيمنة والكيان الوظيفيّ، أن يُعلي من شأن الأولى، أو أن يُقلّل من شأن فاعليّة المجموعات الحاكمة في الثّانية؛ فالدّولة الفيبرية المهينة (مثلها مثل الكيان الوظيفيّ) هي إطار للفرض والإكراه، ولإدارة التّمييز، وشرعنة اللّامساواة، وإنتاج الهويّات والتّعارضات، والمجموعات الحاكمة في الكيان الوظيفيّ فاعلة: تتحرّك وتناور وتلعب على التّناقضات، لكن التّمايز يبقى في أنّ المجموعات الحاكمة وكياناتها الوظيفيّة، تشتقّ شرعيّتها الأوّليّة والمركزيّة من العُنف المُمارس عليها، وموقعها من ذلك العنف (البقاء)، لا العنف الذي تُمارسه هي، وموقعها فيه (الهيمنة). كما ليس الغرض من صياغة مفهوم الكيان الوظيفيّ أن أضع فصلًا تعسفيًّا بينه ومفهوم الدّولة الفيبرية المهيمنة، بالعكس، فالمفهومان يقعان على طرفيّ مروحةٍ واسعةٍ من التّباينات قد تتحرّك عليها الكيانات السّياسيّة من طرفٍ إلى آخر، مرورًا بمراحل مختلفة، تجعل من المحور الواصل بين المفهومين طيفًا واسعًا من الحالات البينيّة، مثلًا: يمكن النّظر إلى حالة اليونان بعد انهيارها الاقتصاديّ عام 2015، باعتبارها كيانًا سياسيًّا يتحرّك باتّجاه وضعيّة الكيان الوظيفيّ، إن أخذنا بعين الاعتبار حجم العنف الاقتصاديّ الذي يمارسه عليه الاتحاد الأوروبيّ، وتحديدًا: ألمانيا، بما يجعل من اليونان مساحةً لنفوذ فواعل سياسيّة واقتصاديّة تقع خارجها، وتُدير البلد لصالح هذا الخارج؛ كما يمكن النّظر (بالاتّجاه المعاكس) إلى مصر (في عهد محمد علي)، والسّعوديّة (في عهد المملكتين الأولى والثانية) واليمن الشّمالي (في عهد الإمامة) باعتبارها كيانات سياسيّة كانت تتحرّك باتجاه الدّولة الفيبرية المهيمنة، لولا أن أعاقت هذه الحركة عوامل عدّة ليس هذا مجال بحثها بالتّفصيل، فتقهقرت جميعها إلى وضعيّة الكيان الوظيفيّ؛ كما يمكن النّظر إلى «إسرائيل» باعتبارها كيانًا وظيفيًّا

تحرّك بنجاحٍ —إلى حدّ كبير— نحو وضعيّة الدّولة الفيبرية المهيمنة.

ملاحظات جرامشي مُطبّقةً على أحوال المنطقة العربيّة في القرن الحادي والعشرين

على صعيدنا العربيّ المعاصر، تقودنا هذه القراءات الجرامشيّة إلى ملاحظات عدّة:

الأولى: أنّ السّلطة في الكيانات الوظيفيّة التي نشأت في المنطقة العربيّة بعد فترة الاستعمار، وبتدميرها المُمَنهج لنشوء و/أو تطوّر أيّة قوىً مجتمعيّةٍ مُسيّسة (كالأحزاب، والنّقابات، وأطر العمل الأهليّة والشّعبيّة)، وتحجيمها وإلحاقها لما هو قائمٌ منها (الصّحافة، الجوامع، وكلّ العناصر الأخرى للوجود «الخاصّ»، الـ (private)، لم تترك لنفسها إلا خيار القوّة الإكراهيّة في التّعامل مع النّاس، وجرّدت نفسها من إمكانيّات الهيمنة (الأعمق) بالمعنى الجرامشيّ، ومن ثمّ فهي في حالةٍ مستمرّةٍ من «الاهتزاز» الذي يضعها دومًا على الحافّة، تحفر قبرها بيدها، دون وجود قوىً داخليّةٍ فعليّةٍ تدفع بها إلى حتفها، فتظلّ —والحال هكذا— تمارس القمع داخليًّا، مُضيفةً المزيد إلى اهتزازها، بينما تعزّز وضعيّتها —وبالتّزامن— في موقع التّبعيّة (إقليميًّا ودوليًّا)، إذ إنّ اليد الخارجيّة أقوى وأقدر على السّير بوضعيّة الحافّة إلى نهاياتها، وبهذا يمكن القول أن السّلطة (بتدميرها وإلحاقها لعناصر المجتمع المُسيّس، والمساهمة بتعزيز تبعيّتها)، تحفر قبرها بيدها، لكنّها —ومن جهة أخرى— تُضعف وتُعطّل وتفكّك القوى الدّاخليّة التي يمكن أن تدفنها في هذا القبر(11).

الثّانية: أن الجزء الأكثر «استقلاليّة» عن السّلطة في قطاعات المجتمع المدنيّ (بالمعنى الجرامشيّ) في المنطقة العربيّة اليوم، هو قطاع المنظّمات «غير الحكوميّة» التي تتلقّى تمويلها، ودعم وجودها، من مؤسسّات دوليّة مانحة، تتبع مباشرة، أو تتلقى تمويلها من، حكومات دولٍ قويّةٍ ومؤثّرةٍ إقليميًّا أو دوليًّا (يبدو وصف «غير الحكوميّة» هنا مُثيرًا للسّخرية). ترتبط استراتيجيّات عمل

هذه المنظّمات «غير الحكوميّة»، وبرامجها، وأنشطتها، بمصالح هذه الدوّل المُتمرّسة في الهيمنة الدّاخليّة والخارجيّة؛ دولٌ تمتلك خطابًا عميقًا وأدواتٍ أكثر منهجيّةً ومرونةً و«مصداقيّةً» وإقناعًا وتأثيرًا وفاعليّة. يؤدّي هذا الارتباط (المباشر أو الضّمنيّ) إلى تحوّل «المجتمع المدنيّ» (بالمعنى المتداول اليوم) إلى امتداد لهيمنة دول المصدر، ليشكّل إضافةً نوعيّةً للوضع المهتزّ للسُّلطة من جهة، ومنافذ لإمكانيّات ولوج النّفوذ والتّدخّل الخارجيّين عند الحاجة، من جهةٍ أخرى. هذا مثال على أنّ الهيمنة (بالمعنى الجرامشيّ)، في سياق الرّأسماليّة المُعولَمة، وفي سياق الكيانات الوظيفيّة وتبعيّتها، صارت —إلى حدّ كبير— خارج نطاق تأثير المجتمع السّياسيّ المحليّ الذي تُرك له جزءٌ من وظيفة الإكراه، وانتقلت لكونها جزءًا من عناصر المراكز الرّأسماليّة نفسها، ويمكن الاستدلال على هذه الهيمنة العالميّة بوضوح من خلال أنماط الاستهلاك العالميّة شبه الموحّدة، والأشكال والتّنظيمات المدينيّة المُستنسخة عن النّموذج الرّأسمالي الأميركيّ المركزيّ في كلّ أنحاء العالم، ونفوذ مؤسّسات النّظام الرّأسماليّ (صندوق النّقد والبنك الدّوليّين) عالميًّا.

الثّالثة: مع أن مفهوم «الدّولة» عند جرامشي غير جليٍّ بشكلٍ كامل، إلا أنّ الواضح أنّه يعتبرها هيكلًا خارجيًّا لفواعل داخليّة يمثّلها (بشكل عامّ) المجتمعين السّياسيّ والمدنيّ، وأن المشروع الثّوريّ لجرامشي يقضي باستبدال منظومة الإكراه/الهيمنة للمجتمع القديم (الرّأسماليّ) بمنظومة هيمنةٍ أخرى (أكثر رفعة، أو «تمدّنًا» بتعبير جرامشي) هي سلطة اتّحاد العمّال (شمال إيطاليا) والفلّاحين (جنوبه) مع الحفاظ النّسبيّ على هذا الهيكل العامّ باعتباره رافعةً اجتماعيّةً وسياسيّةً ضروريّة. فلنتذكّر أنّ «دولة» جرامشي كانت فيها صناعاتٌ ناشئةٌ تحميها الدّولة (على رأسها مصانع «فيات» في تورين حيث تشكّل الوعي السّياسيّ لجرامشي، وفيها تأسّست —بمشاركته وقيادته— مجالس العمّال، وصحيفة النّظام الجديد، والحزب الشّيوعيّ الإيطاليّ)، وطبقةٌ عاملةٌ خاضت نضالاتٍ وإضراباتٍ جذريّة، ووحدةٌ فتيّةٌ نسبيًّا لمجالٍ سياسيّ كان قبلها مُدنًا

مُتفكّكة، أي: عناصر دولة سوقٍ موطنيّةٍ واعدةٍ يمكنها أن تسير على طريق التّطوّر الرّأسماليّ نحو الشّيوعيّة(12).

في المنطقة العربيّة اليوم، ليس ثمّة دول من هذا النّوع، ولا إمكانيّة لنشوء مثلها في ظلّ تمدّد المراكز الرّأسماليّة ليشمل نفوذها (وإعاقتها لتطوّر غيرها من البلدان عن السّير على الطّريق نفسه) كامل مساحة العالم. ليس لدينا «دول» في المنطقة العربيّة، بل كيانات وظيفيّة، تعمل مجموعاتها الحاكمة على تدمير إمكانيّات تنميتها، وتعزيز تبعيّتها (فهذه وظيفتها الأساسيّة تجاه المجال الخارجيّ الذي يرعى استمراريّتها). لذا، أرى أنّ «الدّولة» في المنطقة العربيّة؛ إذ تتّخذ صيغة الكيان الوظيفيّ، ليست سوى أداةٍ لتعزيز وظيفيّة المجموعة الحاكمة، وفرض سطوتها، وتعزيز تسلّطها وإعادة إنتاجه، وهي (بحكم وظيفيّتها المرتبطة بالتّقسيمات الاستعماريّة التي أنتجتها) جزءٌ أساسيٌّ من منظومة السّيطرة (الدّاخليّة) والهيمنة (الخارجيّة)، أداةٌ مهمّةٌ لترسيخهما، لا مجرّد مساحةٍ جغرافيّةٍ-سياسيّةٍ محايدةٍ لهما.

في تقديمهما للطّبعة الألمانيّة لعام 1872 من البيان الشيوعيّ، كتب كارل ماركس وفريدريك إنجلز استنتاجًا وصلا إليه بتأثير من التّجربة الفعليّة لسلطة العمّال، المتمثّلة بكُمْيُونَة باريس: «شيءٌ واحدٌ أثبتته الكُمْيُونَة بشكلٍ خاصّ، وهو 'أنّ الطّبقة العاملة لا يمكن لها أن تضع يدها —ببساطة— على جهاز الدّولة المصنوع مسبقًا، وتستخدمه لأغراضها'.»(13). بهذا المعنى، لا يمكن النّظر إلى الدّولة البرجوازيّة نفسها، والتي هي دولةٌ بحقّ، كإطارٍ للعمل التّحرّري؛ إذ تتماسك وتتعاضد أجزاؤها بعلاقات القوّة التي تحكمها، فكيف الأمر ونحن نتحدّث هنا عن كياناتٍ وظيفيّةٍ تتماسك بعلاقات الفساد والتّنفيع والإكراه والتّبعيّة والزّبائنيّة؟

البرلمانات الصّوريّة باعتبارها أسواقًا سياسيّةً سوداء

امتدادًا لمفهوميّ الإكراه والهيمنة، وأشكال «المؤسّسات» الجوفاء التي تُميّز الكيانات الوظيفيّة، يعتبر جرامشي وجود برلمانٍ صوريٍّ مُفرغٍ من مضمونه،

ونظامٍ حزبيٍّ شكليّ، أخطر من البرلمانيّة الواضحة، البيّنة، الصّريحة، الفعّالة(14)، فالأوّل يحمل عيوب الثّانية دون إيجابيّاتها، ويلعب دور «الأسواق السّوداء، أو أشكال اليانصيب غير القانونيّ عندما يتم إغلاق الأسواق الرّسميّة وأشكال اليانصيب الشّرعيّ لسبب أو لآخر»(15). هذه المنظومة الدّيكوريّة(16) تلعب دورًا تعويضيًّا نسبيًّا عن غياب المجتمع المدنيّ ودوره في الهيمنة في المنطقة العربيّة، وتشكّل دعاماتٍ خلفيّةً ضعيفة، ولكنّها مركزيّة، لسلطة الإكراه؛ شيءٌ يشبه دور الجمعيّات الخيريّة في سياق الرّأسماليّة: فبينما تُنتج الرّأسماليّة أزماتٍ كبرى تتمثّل في الفقر وانعدام المساواة والعدالة والتفاوت الهائل في الدّخل وتدمير البيئة، تعمل الجمعيّات الخيريّة على التّرقيع الموضعيّ لهذه الأزمات، وتنفيس آثارها قبل أن تصل إلى نقطة انفجار الجياع، ويتمّ ذلك بواسطة جيوب النّاس الخاصّة، وتطوّعهم أحيانًا كثيرة بلا أجر، الأمر الذي يعمل على مساعدة واستدامة النّظام نفسه الذي ينتج هذه الظّواهر من جانب، والتّعمية على دوره في إنتاج الظّلم عبر التّركيز على المسؤولية الفرديّة والشّخصيّة (سواءً فيما يتعلّق بالفقر، أو بالعَطَاء) من جانبٍ آخر.

مارس جرامشي هذه القناعة بشكلٍ حقيقيٍّ أثناء عضويّته في البرلمان الإيطاليّ، وخلال الأيام الأخيرة التي سبقت إحكام الفاشيّة قبضتها على البلاد، واعتقاله، فـ«انضمّ جرامشي والنّواب الشّيوعيّون الآخرون إلى المعارضة البرلمانيّة، لكنّه أصرّ على استحالة العمل بفاعليّةٍ من داخل [إطار ومُحدّدات] الدّستور. اقترح [جرامشي] إعلان إضرابٍ عامٍّ ضدّ الفاشيّة، لكن الأحزاب الأخرى رفضت الاقتراح، وظلّت على عماها تعتقد أنّ القوّة تكمن في البقاء داخل إطار القانون بانتظار تدخّل الملك»(17).

ما أشبه اليوم بالبارحة، فما زالت كثرة من القوى السّياسيّة والمجتمعيّة المختلفة تعتقد —بسذاجة— أنّ «القانون» و«الدّستور» وتفريعاتهما هي أطرٌ كليّةٌ فوقيّةٌ مُحايدة، لا تاريخيّة، تسري على الجميع بحزمٍ متساوٍ، دون أن تدرك أنّها مجرّد تعبيراتٍ سياسيّةٍ عن مصالح السّلطة (الطّبقة المُهيمنة

في حالة «الدّولة»، والمجموعة الحاكمة في حالة «الكيان الوظيفيّ»)، وقواعدَ لِلُّعبة تضعها للآخرين، وتَنتج أساسًا عن توازنات القوى داخل المجتمعات ذات العلاقة، أو عن التّوازنات الإقليميّة والدّوليّة (كما في حالة المعاهدات والاتفاقيّات)، أو عن سطوة الرّأسماليّة وأدواتها التّدخّليّة (كما في خطط إعادة الهيكلة الاقتصاديّة والخصخصة ورفع الحماية عن المُنتجين المحليّين في الأطراف)، وعندما تتغيّر موازين القوى، أو تتغيّر مصالح السّلطة، أو تحوز القوى الاقتصاديّة العالميّة إمكانيّات تدخّليّة أكبر، يُلقى بما هو غير مناسب من الدّساتير والقوانين في القمامة، مثلما حصل مع جرامشي نفسه (تمّ اعتقاله على الرّغم من حصانته كعضوٍ في البرلمان، ومات في سجنه)، ومثلما يحصل يوميًّا في المنطقة العربيّة من خروقاتٍ واضحةٍ للدّساتير والقوانين من قبل السّلطة التي وضعتها، كمثالٍ يوضّح الطّبيعة الإكراهيّة-العنفيّة المرنة لأطرٍ تبدو خارجيًّا مُحايدة وكليّة وصلبة؛ أمّا التّمنيّات المتعلّقة «بضرورة أن يُطبّق القانون على الجميع،» فهذه لن تتجاوز مربّع الطّوباويّة التّمنيّاتيّة، إن لم تقترن بتغيّرٍ يفرضها في موازين القوى.

التّقويض الفعّال: استنتاجات جرامشيّة مُهمّة لثوريّي القرن الحادي والعشرين

من الواضح اليوم أنّ العمل التّغييريّ من داخل إطار «الدّولة» أو الكيان الوظيفيّ، في وضعٍ تمتلك فيه السّلطة كامل قدرات السّيطرة والعنف، مضافًا إليها إمكانيّات الإغواء والاحتواء في ظلّ عدم وجود تنظيماتٍ حقيقيّةٍ قادرة على استبدالها، هو شكل من أشكال التّفريغ المستمرّ للأزمات والغضب النّاتج عنها، وهو أيضًا آليّةٌ تُساعد المجموعات الحاكمة على اشتقاق إمكانيّاتٍ وظيفيّةٍ أخرى ومستجدّة لنفسها، تطيل بها عمرها، وتؤخّر به دفنها في القبر الذي تحفره لنفسها(18).

يقول جرامشي (وسأقتبسه مطوّلًا للأهميّة): «إن فقدت الطّبقة الحاكمة الإجماع، أي أنّها لم تعد 'تقود' بل'تسيطر' وحسب، تمارس القوّة الإكراهيّة

فقط، فإنّ هذا يعني أنّ الجموع قد انفصلت عن أيديولوجيّاتها التّقليديّة، ولم تعد تعتقد بما اعتقدت به في السّابق [بخصوص السّلطة]»(19)، وتتشكّل بذلك «أزمة النّفوذ» التي تخلق «مباشرةً أوضاعًا خطيرة، لأنّ الشّرائح المختلفة من المجتمع لا تملك القدرة نفسها على إعادة التّموضع أو إعادة تنظيم نفسها بالوتيرة نفسها. الطّبقة الحاكمة التّقليديّة، والتي تملك موظّفين كثيرين مُدرّبين، تُغيّر البرامج والشّخصيّات، وتعيد مسك زمام التّحكّم الذي كان بدأ بالتملّص منها، بسرعةٍ أكبر من الطّبقات الخاضعة؛ كما تقوم [الطّبقة الحاكمة في هذه الأوضاع] بتقديم التّضحيات، وتعريض نفسها لمستقبلٍ غير مأمون العواقب، بإطلاق وعودٍ ديماغوجيّة، لكنّها تُحافظ على السّلطة، وتقوّيها للفترة الرّاهنة، وتستخدمها لسحق خصومها وتفريق قياداتهم، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا كُثرًا، أو مدرّبين بشكلٍ جيّد»(20).

ربّما يجد القارئ في الفقرة أعلاه، ما يحيله مباشرة إلى مصير الانتفاضات المعاصرة في أكثر من بلد عربيّ؛ انتفاضاتٌ انطفأت بتحرّكاتٍ للسّلطة على المسار نفسه الذي أوضحه جرامشي قبل قرنٍ من الزّمان. الحلّ؟ يمكن استنتاجه من جرامشي في سياقٍ آخر شبيه: «الدّرس من السّنتين الحمراوين [في إيطاليا، 1919 و1920 اللّتين حصلت فيهما التّحرّكات الثّوريّة للعمّال، وفشلت] هو أنّه كان على القوّة الثّوريّة أن تكون موجودةً قبل تلك اللّحظة»(21). ينبغي إذًا التّحضير للثّورة مُسبقًا قبل انفجارها، والتّأسيس لها، لا انتظار الانتفاضات الشّعبيّة ليبدأ التّفكير بعدها، وهذا التّحضير، والبناء اللّازم له، يجب أن يتمّ خارج أطر سيطرة السّلطة بالكامل، وضمن ثنائيّة الهدم-إعادة البناء(22) التي يمرّ عليها جرامشي عَرَضًا في كتاباته، وفي إطار ما تسميّه روزا لوكسمبورج «المهمّة التّاريخيّة للبروليتاريا»: تصفية الدّولة الموطنيّة المعاصرة باعتبارها «الشّكل السّياسيّ للرّأسماليّة»(23)، وامتدادًا لذلك: تصفية الكيانات الوظيفيّة باعتبارها الإطار الفعّال الذي تعمل من خلاله الرّأسماليّة في الأطراف. من هذه التّصفية/الهدم-إعادة البناء، سأصوغ ملامح أوليّة لما سأسميّه: التّقويض الفعّال.

يمثل «التّقويض» عند جرامشي (وبالمفهوم «الإيطاليّ»، كما يورد) موقعًا طبقيًّا سلبيًّا، وينتجُ عن كون النّاس لا يعون بوضوح أن لديهم «أعداء [طبقيّين]»، فيعرّفونهم بشكلٍ عموميٍّ باعتبارهم «السّادة (24)«(signori)، وهو ما نجده بتناسخٍ آخر اليوم، حين يشير النّاس إلى «الفاسدين»، باعتبارهم كتلةً غير واضحة المعالم، تنهال عليها الشّتائم، ولا يمكن الإمساك بها فعليًّا، وغير مُحدّدةٍ طبقيًّا، في حين تندرج المُمارسات التّقويضيّة مثل: سرقة الكهرباء والماء من الشّبكة العموميّة، وتشغيل السيّارات الخاصّة كسيّارات أجرةٍ للعموم خارج إطار التّرخيص الرّسميّ، وبيع المنتجات بلا فواتير وإبقائها خارج النّظام الضّريبيّ للسُّلطة، وصولًا إلى إلقاء القمامة في الشّوارع، وغيرها من أمور، ضمن أشكال الفِعْل الفرديّة والانتقاميّة المُضرّة نسبيًّا بالسُّلطة، لكنّها لا ولن ترقى إلى التّحوّل إلى قوّة منهجيّةٍ وواعيةٍ وثوريّة.

مقاربة التّقويض الفعّال تتضمّن عنصر البناء المرافق دومًا للهدم، ففي موازاة تعرية عناصر الإكراه والسّيطرة، وتفكيك أشكال البرلمانيّة والحزبيّة الشّكليّتين، ودفع السُّلطة بشكلٍ مستمرٍ إلى نقطة «أزمة النّفوذ»، يُشيَّد بموازاة مساحات السُّلطة، وخارج مناطق نفوذها، مساحاتٌ لـ»الحكم الذّاتيّ»، يرد ذكرها في برنامج صحيفة جرامشي، النّظام الجديد، بخصوص العمّال، لكن يمكن تعميمها على قطاعات المُضطهَدين بشكل أوسع: «فلندرس المصنع الرّأسماليّ، لا باعتباره منظّمةً للإنتاج الماديّ (...) بل كإطارٍ ضروريٍّ للطّبقة العاملة؛ باعتباره كائنًا سياسيًّا حيًّا؛ باعتباره ‘المساحة الموطنيّة’ للحكم الذّاتي للعمّال»(25). تشكّل هذه المساحات مختبرات الممارسة الفعليّة لأشكال المجتمعات المستقبليّة، وتطوير أدواتها، لتكون جاهزةً لحظة صعود الأزمة إلى نقطة الانفجار.

كما تبدأ هذه المساحات من خلال التّثقيف العامّ الواسع كأداةٍ أساسيّة لفلسفة التّفعيل، تُلغي «الوعي المزدوج» أو «المتناقض» للمضطهَد: وعيه العمليّ الذي يحوزه من خلال مساهمته (بواسطة عمله) بتغيير العالم، وتغيير نفسه من خلال هذا التّغيير؛ ووعيه النّظريّ الموروث عن الماضي الطّويل، والذي

يقبله هكذا بلا سؤالٍ أو نقد؛ وقد يؤدّي هذا الوعي المتناقض إلى حالة من السّلبيّة السّياسيّة، والانسحاب(26). ويتمّ هذا التّثقيف من خلال فهمٍ حادٍّ لدور المفكّر (Intellectual)، بحثه جرامشي بتوسّع، ولن يُتاح لنا هنا الخوض فيه إذ بحثناه في القسم الخامس من الفصل الثالث من هذا الكتاب [الكيانات الوظيفية]، باستثناء الإشارة إلى قسمٍ منهم يشكّلون «'ضبّاط' الطّبقة الحاكمة [الموكول إليهم] القيام بالوظائف التّابعة المتعلّقة بالهيمنة الاجتماعيّة والحكم السّياسيّ»(27)، وتدمير هذا النّسق عبر ما يراه جرامشي من تمكينٍ لأكبر شريحةٍ ممكنةٍ من النّاس من التّفكير النّقديّ (لا الدّعائيّ، فتلك مهمّة المثقّف-الضّابط العامل عند السّلطة)، وتحويل الفلسفة (من خلال التّماسّ مع النّاس) إلى «التّاريخ مُمَارسًا (in action)، إلى الحياة بذاتها»(28)، فيحصل النّاس على وضع مُشخّص، مُعيّن، مقابل وضعهم السّابق غير المتبلور(29)، ويتمكّنون بواسطة أميرهم الحديث (الذي أثبتت التّجارب المتتالية ضرورته): التّنظيم السّياسيّ الثّوريّ، من تغيير التّاريخ.

التّقويضُ الفعّال باعتباره مُفاقمةً لِـ«أزمة النّفوذ»

تحدّثنا سابقًا عن «أزمة النّفوذ» كما يُعرّفها جرامشي، وأشرتُ إلى أنّ السُّلطة في الكيانات الوظيفيّة تقفُ دائمًا على حافّة الهاوية، حافّة قبرها، دون أن تجد يدًا تدفعها إلا إن كانت يدًا خارجيّة، فالأيدي الدّاخليّة شُلّت عبر عقود من التّصحير السّياسيّ. التّقويض الفعّال في حالةٍ كهذه يكمن في إضعاف الحافّة التي تقف عليها المجموعة الحاكمة، وذلك بالانسحاب من أشكال وأدوات إسباغ الشّرعيّة عليها واستدامتها، والانسحاب من المساحات السّياسيّة التي تقع تحت سيطرتها، وهي (على سبيل المثال): الانتخابات، والأحزاب السّياسيّة، ومؤسّسات المشاركة السّياسيّة الدّيكوريّة المُرخّصة؛ وليس المقصود بالانسحابِ هنا الانسحابَ الفرديّ فقط، بل الانسحاب الجماعيّ الممنهج والمنظّم إلى خارج مساحات سيطرة السّلطة، فأيّ شكلٍ سياسيٍّ-اجتماعيٍّ يشتقّ شرعيّته

من المجموعة الحاكمة يُقوّيها، ويُخضع نفسه لميزان القوى المختلّ لصالحها، من ثمّ، على أشكال التّجمّع السّياسيّ أن تُبنى خارج إطار سيطرة السّلطة، وأن تشتقّ شرعيّتها من ذاتها، من حقّها في الوجود السّياسيّ، وحقّها في التّغيير، وحقّها في العمل من أجل شكلٍ اقتصاديّ-سياسيّ-اجتماعيّ تتحقّق فيه العدالة والمساواة، من دون اعتبارٍ لمحدِّدات السّلطة وقواعدها.

لا تعتمد السّلطة على الإكراه فقط، على «المجتمع السّياسيّ» وحده، بل على الإغواء والاحتواء الذي يمثّل حصون وقلاع السّلطة داخليًّا، والمتجسّم فيما يسمّيه جرامشي: المجتمع المدنيّ. ينبغي إيلاء جهدٍ خاصٍّ لتفكيك المجتمع المدنيّ باعتباره دائرةً من دوائر نفوذ السّلطة وسيطرتها/هيمنتها، مع الانتباه إلى التّعليم، باعتباره المساحة المركزيّة لترويج دعاية السّلطة، ووسيلتها في صناعة وترسيخ «الهويّة» (أيدولوجيا السّلطة وصورتها) و«الانتماء» (إخضاع الفرد لتلك الأيديولوجيا والصّورة)، وإلى مساحات الثّقافة والتّاريخ باعتبارها حقولًا تستملكها السّلطة لاشتقاق عناصر الهويّة، ووجودها الأزليّ اللّاتاريخيّ، وإلى المثقّف باعتباره أداةً إضافيّة لإخضاع العموم لأيديولوجيا السّلطة، وتحويل الإبداع (الضّروريّ لإنتاج المستقبل الآخر، العالم الآخر، الثّورة) إلى مادّةٍ للتّوسّل والتّسوّل، أو سلعةٍ للتّكسّب.

«باعتبارها تجربةً معيشةً في'المساواة المُمَارسة' (equality in action)، كانت الكُمُيُونة في أساسها مجموعةً من الأفعال التّفكيكيّة الموجّهة ضدّ بيروقراطيّة الدّولة، نفّذها رجالٌ ونساءٌ عاديّون (...) كثرةٌ من الأفعال التفكيكيّة هذه كانت موجّهةً —ولا غرابة في ذلك— ضدّ تلك البيروقراطيّة المركزيّة: المدارس»(30)، فحُوِّلت من مؤسّساتٍ لصناعة المواقع الطّبقيّة، والتّحضير لانخراط الأفراد في ديكتاتوريّة الرّأسماليّة وبُناها الاستغلاليّة، إلى مساحاتٍ لاكتساب المعارف والمهارات الإبداعيّة الذّهنيّة واليدويّة معًا فيما سمّي بـ»التّعليم التّكامليّ»(31).

لا يعمل هذا على تقويض الحافّة التي تقف عليها السّلطة فحسب، بل يكتسب فعاليّة مُستقلّة من خلال إكساب التّنظيم التّحرّري «وجوده الشّخصيّ

المُستقلّ» بحسب عبارة جرامشي، فمن خلال «فصل عرى الوحدة المبنيّة على الأيديولوجيا التّقليديّة [أيديولوجيا السّلطة]، والتي من دونها لن تتمكّن القوّة الجديدة من اكتساب الوعي بشخصيّتها المستقلّة»(32)، تخرج هذه القوّة الجديدة إلى الوجود بعد أن كانت قبل ذلك غير موجودةٍ، لأنّها كانت جزءًا من السّلطة-المجموعة الحاكمة-الكيان الوظيفيّ.

= = =

الهوامش

(1) Antonio Gramsci, The Modern Prince and Other Writing, translated by Luis Marks, International Publishers, 2016 (1957), p. 57.

(2) Antonio Gramsci, Selections from the Prison Notebooks, edited and translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith, International Publishers, 2018 (1971), p. xiii.

(3) Antonio Gramsci, Prison Notebooks Vol. I, edited by Joseph A, Buttigieg, translated by Joseph A. Buttugieg and Antonio Collari, Columbia University Press, 1992, p. 1.

(4) The Modern Prince, p. 101.

(5) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(6) Selections, p. 276.

(7) The Modern Prince, p. 152.

(8) برادراغ غرانيكي، أنطونيو غرامشي ومعنى الاشتراكيّة، في: جاك تكسيه، غرامشي: دراسة ومختارات، ترجمة: ميخائيل إبراهيم مخول، مراجعة: جميل صليبا، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1972، ص 237.

(9) Selections, p. 238.

(10) هشام البستاني، الكيانات الوظيفيّة: حدود الممارسة السياسيّة في المنطقة العربيّة ما بعد الاستعمار، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 2021

(11) نفس المرجع أعلاه، ص ص 439–454.

(12) Vladimir Ilyich Lenin, "The Right of Nations to Self-Determination" in Collected Works (Progress Publishers, 1972 [1914]), Vol. 20, pp. 393–454.

(13) Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, Penguin, 2002 (1888), p. 194.

(14) في نقد «البرلمانيّة» وآثارها الاحتوائيّة لصالح الرأسماليّة، انظروا:

Rosa Luxemburg, Social Democracy and Parliamentarism, Rosa Luxemburg Internet Archive (marxists.org), 2000 (1904),

https://www.marxists.org/archive/luxemburg/1904/06/05.htm

(تم الدخول إلى الرابط يوم 2 نيسان 2020).

(15) Selections, p. 255.

(16) عضو مجلس النواب الأردني المخضرم عبد الكريم الدغمي يقول: «نحن مجرّد ديكور»، في: برنامج صوت المملكة، قناة المملكة، 19 تشرين الثاني 2019،
https://youtu.be/zw5ztYHYVBU

(تم الدخول إلى الرابط يوم 2 نيسان 2020).

(17) The Modern Prince, p. 17.

(18) الكيانات الوظيفية، ص ص 371-392.

(19) Selections, pp. 275-276.

(20) The Modern Prince, pp. 174–175.

(21) Chris Bamberg, A Rebel's Guide to Gramsci, Bookmarks, 2006, p. 55.

(22) Selections, p. 168.

(23) Rosa Luxemburg, The National Question (1909), in: Horace Davis (ed.), The National Question: Selected Writings By Rosa Luxemburg, Monthly Review Press, 1976،

ويمكن الوصول إلى الكتاب من خلال أرشيف الإنترنت الماركسيّ:

https://www.marxists.org/archive/luxemburg/1909/national-question/index.htm

(تم الدخول إلى الرابط بتاريخ 2 نيسان 2020).

(24) Selections, p. 272.

(25) The New Prince, p. 23.

(26) المرجع السابق نفسه، ص ص 66–67.

(27) المرجع نفسه، ص 124.

(28) نفسه، ص 81.

(29) نفسه، ص 73.

(30) Kristin Ross, Communal Luxury: The Political Imaginary of the Paris Commune, Verso, 2016, p. 39.

(31) انظروا حول ذلك المرجع السابق نفسه، ص 42 وما بعدها.

(32) Antonio Gramsci, The Modern Prince and Other Writing, translated by Luis Marks, International Publishers, 2016 (1957), p. 142.

https://www.lse.ac.uk/middle-east-centre/events/2022/Gramsci-MENA-Conference

فراس حج محمد

أحوال الاسم بين المصروف والممنوع من الصرف والمبني

الصرف في هذا الباب يعني التنوين والجر بالكسرة، أو أنه يعني التنوين وحسب كما سيأتي لاحقاً، وهو الحالة الطبيعية الإعرابية للاسم في اللغة العربية، فالأصل أن يكون الاسم معربا مصروفا، وكل ما جاء على أصله لا يُعلل، على العكس من الاسم «غير المصروف» و«غير المعرب»؛ إذ تحتاج إلى تبرير وحجة وسبب، لأنها خرجت عن الأصل، ومهما تشعبت تلك الأسماء فهي قليلة بالقياس إلى الأسماء المصروفة.

يقع الاسم الممنوع من الصرف في منزلة وسطى بين المعرب المصروف الذي ينون ويجر بالكسرة وبين الاسم المبني، واشتبه الممنوع من الصرف بالمبني لأنه قُيّد في حركته، وجرت عليه العلة التي انتقصت من تمكنه الأمكن الذي يوصف به عادة الاسم المصروف. وعلى ذلك فالأسماء ثلاثة: متمكن أمكن وهو المعرب المصروف، والمتمكن غير الأمكن وهو الممنوع من الصرف، والمبني الذي يلزم حركة واحدة، فكأنه جامد عليها وواقف عندها، وكأنه يعاني من علتين معا، جعلته يفارق المصروف بخطوتين.

هذا الربط بين الأنواع الثلاثة من الاسم، يجعل تلك الأسماء تتداخل فيما بينها في حالات معينة، فالاسم — في أي حالة من تلك الحالات— قد يتغير

وضعه، فالممنوع قد يصرف، والمصروف قد يمنع من الصرف، والمبنيّ قد يعرب، والمعرب قد يبنى، وفيما يلي بيانٌ لهذه الحالات.

ماذا يعني أولا صرف الممنوع من الصرف؟ إنه يعني إرجاع الاسم إلى حالته الأصلية، مصروفا، رفعا ونصبا وجرا بالعلامات الأصلية، أو قبوله التنوين وما يقابله، أو إعرابه بالحروف فقط من بين العلامات الإعرابية الفرعية، ولهذا الإرجاع حالات، ولا يقال لها أسباب، إذ «السبب» خاص بتعليل حالة الخروج عن الأصل، أما الحالة فهي توصيف لما أصبح عليه الاسم، معافى في الاعتبار اللغوي واقعيا أو ذهنيا توهميّاً.

لقد اتفق النحاة على أن الاسم الممنوع من الصرف يعود مصروفا في حالتين مؤطرتين قواعديا، وهما إن عرّف الاسم بالإضافة أو تحلّى بأل التعريف، فهو مصروف عند ذلك مطلقاً، فتلحق به الكسرة في حالة الجر، مع امتناع أن يلحق به التنوين، لأنه لا يجتمع التنوين مع كل اسم مضاف أو معرّف بأل التعريف، ولا يجوز اعتبار الاسم ممنوعا من الصرف، إذ يفارق حالته ويعود إلى أصله كبقية الأسماء.

لم يبحث النحاة عن حالات أخرى يكون الاسم الممنوع من الصرف فيها مصروفا غير هاتين الحالتين، سوى «الضرورة الشعرية» التي تندرج في المقولة الأكبر «يحقّ للشاعر ما لا يحق لغيره»، وبناء على هذه الإمكانية الفضفاضة منع الشاعر ألفاظا وأسماء من الصرف كلما دعته الأوزان والقافية إلى ذلك، فصرف أو منع حسب مقتضيات الحالة الشعرية، وهي كثيرة، خصص لها ابن عصفور كتابه «الضرورات الشعرية».

يبدو من خلال ما كتبه النحاة في هذا الجانب أن رد الممنوع من الصرف إلى حظيرة المصروف في الشعر أمر طبيعي، ولا يوقف عنده، وهو مشهور ولا يعد عيبا لدى النحاة ولا لدى النقاد، ولا ينقص من قدر الشاعر وقدرته، ووجد عند فحول الشعراء. أما الاستقباح فجَعْل المصروف ممنوعا من الصرف لغير علة. وفي ذلك أقوال كثيرة وتعليلات طريفة.

يندرج مفهوم «الضرورة الشعرية» ضمن مفهوم أكبر وهو «الضرورة» العامة ومنها «الضرورة الشرعية»، فقد قال الفقهاء: «الضرورات تبيح المحظورات». استفاد الشعراء من هذه القاعدة فانتهكوا بعض القواعد لصالح الشعر ليستقيم ويحسن في السمع والترتيل، وربما وجد النحاة عذرا لهم في قوله تعالى: «إن تسألوا عن أشياءَ إنْ تبدوُ لكم تسؤكم» (المائدة، 101)، فتم منع أشياء من الصرف، لا لأي علة، سوى التخلص من توالي المقاطع المتتالية المتشابهة في النطق، فيختل إيقاع الآية لو قال: «عن أشياءٍ إنْ»، فآخر مقطعين هما: (ئنْ، ئنْ)، فمنعا لهذا التوالي المقطعي اللفظي المتشابه منعت أشياء من الصرف.

والحذف لتوالي الأمثال وارد في قوانين اللغة العربية في أبواب أخرى صرفيّة ونحوية. إذاً فكما جاز في القرآن الكريم المنع من الصرف للاسم المصرف في موضع واحد لاعتبار مقبول جاز في أي موضع في الشعر وفي غير الشعر، لأن القرآن الكريم ليس شعرا، ولا تجري عليه مبادئ «الضرورات الشعرية»، بل هو نظم نثريّ إيقاعيّ سلس. فكلما احتاج الشاعر لشيء من ذلك فلا ضير ويحق له في القصائد عامة، ومنها قصيدة النثر التي تعتمد كثيرا على إيقاع الجمل وتراكيبها وطبيعة الألفاظ أكثر مما يعتمد الشعر الموزون عموماً، إذ اعتبارات الوزن متشكلة في الشعر الموزون من موسيقى التفاعيل وانتظامها ضمن ما يعرف بالبحور الشعرية.

فيما سبق تشريع وتصريح لاستخدام «الضرورة اللغوية» متى احتاج إليها الأديب، شاعرا أو ناثراً، وحتى لا يذهب بيَ الحديث نحو الشعر ومعاييره والكتابة الأدبية، وأبتعد عن الهدف من هذه «الكتابة»، أناقش ما تبقى من مسائل في اشتباه المصروف مع الممنوع من الصرف مع المبني أيضا، فثمة حالات غير تينك الحالتين يصرف فيها الاسم الممنوع من الصرف، وهي مبثوثة في كتب النحو في أبواب متفرقة، أحاول أن ألمّ شتاتها لعلها تشكل مجموعة متصلة من «الحالات» التي يعود فيها الاسم متمكناً أمكن، مصروفاً منوّناً.

أول تلك الحالات التي يعود فيها الاسم إلى وضعه الطبيعي مصروفاً، مجيئه مثنىً، فالتثنية تجعل الاسم مصروفاً، تلحق به النون التي هي بدل من التنوين

في الاسم المفرد، والتنوين علامة للمصروف، فالاسم «فاطمة» ممنوع من الصرف، لكنه سيكون مصروفاً عند التثنية، مررت بفاطمتين، فالياء في الاسم المثنى علامة إعراب فرعية (حرف) والنون يقابل التنوين في الاسم المفرد، إذاً لقد قبل الاسم علامة الإعراب التي يشترك فيها مع غيره من الأسماء المثناة التي كانت في مفردها غير ممنوعة من الصرف كما هو في جملة «مررت بمحمدين». وما ينطبق على الاسم المؤنث ينطبق على الاسم المذكر، فإبراهيمان ويوسفان، اسمان غير ممنوعين من الصرف وإن كان مفردهما لا يُصرف.

ومثل التثنية في الاعتبار، الجمع جمعا سالما، فقولك: مررت بفاطماتٍ، كقولك، مررت بمعلماتٍ، فقد وحّد جمع المؤنث السالم بين الاسمين، فزال لذلك المنع من الصرف عن فاطمات، فحالة الجمع وإلحاق المفرد بالألف والتاء، جعل كل الأسماء ذات اعتبار واحد مصروفة. وكذلك الحال عند جمع الأسماء الأعجمية العلمية الممنوعة من الصرف جمع مذكر سالما، من مثل: إبراهيمون، ويوسفون، وغيرها.

والتثنية لا تؤثر في الممنوع وحسب، بل إن لها أثرا في الاسم المبني أيضاً، إذ تُعيد التثنية الاسم المبني إلى حظيرة المعرب، كما في «هذان، واللذان، وهاتان، واللتان»، مع الإقرار بوجود الخلاف بين النحاة في هذه المسألة لكنني أنحاز إلى اعتبارهما أسماء مصروفة ومعربة.

وفي مبحث النسب، أي إلحاق ياء النسبة بالاسم الممنوع من الصرف فإنه يصبح مصروفاً، وذلك لأن النسب خلّصه من علله التي كان بسببها ممنوعا من الصرف، فالنسب إلى فاطمة، فاطميّ، وفاطميّ مصروف مطلقاً، إذ حررت ياء النسب الاسم من العلمية الخاصة المؤنثة، وأطلقته إلى الوصف المذكر العام، فحقّ عندئذٍ اعتبار الاسم مصروفاً. ومثله كذلك: إبراهيميّ، ويوسفيٌّ وأشباه ذلك.

ولأجل هذا، أو قريب منه يصرف العلم الممنوع من الصرف إذا فارق العلمية ليدخل في عموم النكرة، فثمة فارق في المعنى عندما يقول أحدهم: إيتيني بفاطمةَ أو إيتيني بفاطمةٍ، ففي الحالة الأولى علم معروف في الذهن

محدد، وفي الثانية نكرة، وكأنها ليست علما، وإنما شخص من سماته أن اسمه فاطمة، فالاسم هنا ليس دليل تعريف وإنما دليل توصيف، وبذلك علل بعض المفسرين تنوين «مصر» في قوله تعالى: «اهبطوا مصراً» (البقرة، 61)، فليس المقصود كما قال بعضهم مصر التي تدل على القطر، علما على البلد، وإنما أراد التنكير، أيْ، اهبطوا أيّ بلدٍ ستجدون ما أردتم من الثوم والبصل والقثاء.

ومثل هذا التفريق حاصل في اللغة العربية، ومعترف به في مبحث اسم الفعل، إذ يفرق النحاة بين «صهْ» و«صهٍ»، لتعني الأولى اسم فعل أمر بمعنى «اسكت»، وهذا السكوت عن كلام محدد، أما إذا نُوّنت فإنها تعني التنكير والتعميم؛ أي السكوت مطلقاً عن أيّ كلام.

قد يدخل الاسم المصروف في حالة عارضة، فيتمّ منعه من الصرف بعد أن كان مصروفاً، كما يحدث عند تصغير الاسم الثلاثي المؤنث ساكن الوسط، كما في الاسم العلم «هِنْد»، فهذا الاسم مصروف، مع جواز اعتباره ممنوعا من الصرف، فيخلص من هذا التأرجح ليصبح ممنوعا من الصرف بعد التصغير، فهنيدةُ مصغر هند، اسم علم على المرأة ممنوع من الصرف، قولا واحدا. وسبب هذا المنع من الصرف اختلاف في حالته بسبب التغير الصرفي، فبطُل أن يكون اسما ثلاثيا ساكن الوسط، ليجوز فيه الاعتباران، وكما يمنع المصرف من الصرف فإنه أيضاَ قد يبنى، ومن ذلك أذكر حالة القطع عن الإضافة في قول القرآن الكريم: «لله الأمر من قبل ومن بعدُ» (الروم، 4)، فكلا الظرفين (قبلُ، وبعدُ) ظرفان مبنيان على الضمّ في محل نصب.

وأما آخر الحالات التي تجعل الاسم الممنوع من الصرف مصروفاً، ويحق للكاتب أو المتحدث تنوينه الاسم المنقوص، وهو الاسم المنتهي بياء مدّ لازمة، ويكون هذا الاسم على صيغة منتهى الجموع على وزن «مفاعِل»، من مثل كلمة: «معاني». إن التعامل مع هذه الكلمة وشبيهاتها مصروفة أو ممنوعة من الصرف يحتاج إلى توضيح كيف صار الاسم مصروفاً وهو على وزن مفاعل، صيغة منتهى الجموع، ممنوعا من الصرف.

يعد الاسم المنقوص الذي على وزن مفاعل، ممنوعا من الصرف لعلة واحدة، كونه على صيغة منتهى الجموع، فلحقته علة أخرى، كونه اسما منقوصاً، وبسبب هذه العلة الصرفية الخالصة غير المعنوية يعود إلى «الصرف»، فاجتماع علتين صرفيتين في الاسم المنقوص تجعله لا يحتمل علة نحوية ثالثة، فجاز أن يكون مصروفاً، وهذا الذي أذهب إليه ما هو إلا نوع من «التوهم» المقبول في التعليل النحوي واللغوي. على ذلك يصح أن تقول: «إن معانياً رائقة أتى بها المتنبي»، فتصرف «معانياً»، فيلحقها التنوين، ويصح أن تقول: «إنّ معانيَ رائقةً أتى بها المتنبي»، فتعرب «معانيَ»: اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتح، وفي الحالة الأولى، منصوب وعلامة نصبه تنوين الفتح.

وفي حالتي الرفع والجر يجوز أن تصرف معانيَ ويجوز أن تمنعها من الصرف؛ فتقول مثلا في حالة الرفع: «للمتنبي معاني مبتكرة»، أو «للمتنبي معانٍ مبتكرة»، فإثبات الياء دليل على المنع من الصرف، فتعرب: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. وفي الحالة الثانية المصروفة بحذف الياء وتعويض التنوين، إذ ليس هو التنوين الإعرابي المقصود، تعرب معانٍ: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه تنوين الضم المقدر على الياء المحذوفة.

وبهذا أخلص إلى أن الاسم الممنوع من الصرف يصرف في حالات أخرى — غير الحالتين المنصوص عليهما في كتب النحو— وهما: الإضافة والتحلي بالألف واللام، وهذه الحالات هي: التثنية، والجمع، والتنكير، والنسب، والاسم المنقوص، والضرورة الشعرية، كما أن الاسم المصروف يمنع من الصرف في حالات أخرى غير اللتين نصت عليهما القواعد النحوية، وهي: الضرورة الشعرية، والتصغير، والمحافظة على الاختلاف بالابتعاد عن توالي المقاطع المتشابهة، ويعود المبني إلى الإعراب، مصروفا أيضا في حالة التثنية، كما قد يعامل المعرب معاملة المبنيّ في حالات أخرى.

د. علي بوفلجاوي

من صناعة العربية إلى ملكتها في الفكر الخلدوني

تعدّ معرفة العربيّة كلغة بين اللّغات، من العلوم الرّاقية الّتي لها أثر في تشكيل وتكوين سلوكات الفرد الظّاهرة منها والباطنة؛ لارتباط تعلّمها بالمعجزة الخالدة من جهة، ولارتباطها بمختلف العلوم من جهة أخرى. لذا كان اهتمام العلماء الأوائل في تعلّم العربيّة من أولى انطلاقاتهم في تحقيق سنن العلوم الأخرى، من بيّنهم العلّامة عبد الرّحمن أبو زيد وليّ الدّين المعروف بابن خلدون الذي يعتبر ما توصل إليه لا يقل أهمية عما توصلت إليه النظريات اللسانية الحديثة، بل إنه مادة علمية تربوية صالحة للاستثمار في سبيل تطوير آليات تعليم اللغة.

ولعل الهدف من هذه الدراسة يكمن في تبيان ماهية صناعة اللغة العربية بامتلاك قوانينها وسننها، ثم تجسيدها من أجل اكتساب الملكة اللسانية.

وللوقوف على ماهية وحقيقة تعليم اللغة العربية وتحقيق الملكة اللسانية لدى مستخدميها، حري بنا أن نجعلها تتمحور حول إشكالية أساسية، تتضمن أسئلة تأسيسية يحاول هذا المقال الإجابة عنها وهي: ما المقصود بالصناعة والملكة اللسانية في الفكر الخلدوني؟ وما حضورهما في تعلم اللغة العربية؟ وما العوامل المؤثرة في تحقيق جودة الملكة اللسانية؟

التعريف بالعلامة عبد الرحمان بن محمد بن خلدون

عبد الرَّحمن بن مُحَمَّد بن خَلْدُون أبو زَيْد وَلْي الدِّين الْحَضْرَمِيّ الإِشبيلي المعروف بابن خَلْدُون (1332م - 1406م). ولد في تونس وشبَّ وترعرع فيها

وتخرّج من جامعة الزيتونة، وليَ الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان برقوق قضاء المالكية. ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من مصادر الفكر العالمي، ومن أشهرها كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

ابن خلدون مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي حضرمي الأصل. عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان وفاس، كما تَوَجَّه إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (784-808 هـ)، حيث تُوُفِّيَ عام 1406 عن عمر بلغ ثلاث وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركاً تراثاً ما زال تأثيره ممتداً حتى اليوم ويعتبر ابنُ خَلدون مؤسسَ علم الاجتماع الحديث ومن علماء التاريخ والاقتصاد (ابن خلدون، 2001، ص 3).

مكانة اللغة العربية في المنظور الخلدوني

زعم ابن خلدون أن العربية اختصت بالإعراب وحروف المعاني وهو ما أورثها الوجازة في التعبير، يقول: «وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور (أعني المضاف) ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى، وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب (ابن خلدون، 2006، ص 545).

الملكة اللسانية: مفهوم الملكة

الملكة لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة (م ل ك):» حسن

الملكة والملك ... وأقر بالملكة والمملوك أي الملك ويقال فلان حسن الملكة» (منظور، 2005، ص 101).

ويعد لسان العرب معجما موسوعيا وذلك لسعته وغزارة المادة الموجودة فيه، حيث استشهد بكثير من الآيات القرآنية وكلام العرب، فمادة «ملك» في لسان العرب تعكس مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية وحياة المجتمع العربي.

وأصل اللفظ وهو جذره المكون من الميم واللام والكاف يدل –كما يقول ابن فارس-على قوة الشيء وصحته يقال: أملك عجينة: قوى عجنه وشده وملكت الشيء: قوّيته، ثم قيل ملك الإنسان الشيء يملكه ملكا، والاسم الملك، لأن يده فيه قوية صحيحة (المراكشي، 2012، ص 52).

وقد وردت مادة «ملك» في المعجم الوسيط على النحو التالي: الملكة صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذف ومهارة: مثل الملكة العددية والملكة اللغوية (مجمع اللغة العربية، 2004). وفي المعاجم المعاصرة: الملكة: جمع ملكات: صفة راسخة في النفس، أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال بحذق أو مهارة، موهبة: ملكة لغوية/فنية ملكة الشعر والغناء (عمر، 2008). ومن خلال التعاريف اللغوية السابقة نستنتج فكرة مفادها أن الملكة صفة راسخة في الذهن وفي النفس ولها صلة بالعديد من المجالات مثل الشعر وغيره بحيث نجد عددا من الأشخاص بارعين في مجال الشعر والرياضيات مثلا، وهذا ملكة.

الملكة اصطلاحا

يعرف الشريف الجرجاني الملكة في قوله: «هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة مادامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية وصارت طبيعة الزوال فتصير ملكة وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقا (الجرجاني، 1427هـ).

وتحدث الفارابي بشأن الملكات واكتسابها فيقول: «والإنسان إذا خلا من أول ما يفطره ينهض ويتحرك نحو الشيء الذي تكون حركته إليه أسهل عليه بالفطرة وعلى النوع ما الذي تكون فيه به حركته أسهل عليه، فتنهض نفسه إلى أن يعلم أو يفكر أو يتصور كل كان استعداده له بالفطرة وبملكة طبيعية لا باعتياد له سابق قبل ذلك ولا بصناعة، وإذا كرر فعل شيء عن نوع واحد مرارا وكثيرة حدثت له ملكية اعتيادية ما خلقية أو صناعية (الفارابي، 1982، ص 122).

فالفارابي هنا قسم هذه الملكة إلى قسمين هما: ملكة خلقية وملكة صناعية. وعليه فإن الفارابي ركز على الفطرة أو الجانب الفطري للإنسان في الاكتساب.

عبّر فاخر عاقل عن مفهوم الملكة بالمهارة حيث قال: «وهي حذاقة تنمو بالتعلم وقد تكون حركية كما في ركوب الدراجة، أو كلامية كما في التسميع أو مزيج بين الاثنين كما هو الحال في الضرب على الآلة الكتابية» (عاقل، 1982، ص 102).

فهنا يرى فاخر عاقل أن الملكة مهارة أو حذاقة مقسمة إلى ثلاثة أقسام: مهارة حركية: ومثل ذلك ركوب الدراجة. ومهارة كلامية: مثل التسميع كحفظ كلام الله تعالى. ومهارة حركية وكلامية: ممزوجة في آن واحد مثل الكتابة أو القراءة ومتابعة إيقاعها حركيا.

الملكة عند اللغويين العرب القدامى

لعل ورود الملكة بصيغ عدّة وصلت إلى حد التباين، فكان لكل لغوي فهمه الخاص لها ومصلحته التي ارتضاها. وبداية سنتطرق في هذا الباب إلى أئمة اللغة من العرب القدامى.

عند سيبويه (ت181هـ)

يقول سيبويه في كتابه «الكتاب»: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم فيرح، وما هو محال كذب فأما المستقيم الحسن فقولك: آتيتك أمس وسآتيك

أمس». ويقول أيضا:» وأما المستقيم الكذب فقولك:» حملت الجبل، وشبت ماء البحر، ونحوه «وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا. أما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس (عثمان، ص 52).

من خلال مقولة سيبويه نستفيد ونستنتج بأن الاستقامة شرط في تقويم العبارة وموافقتهما للصحيح من الكلام فهو يقدم لنا درسا في ضرورة السلامة اللغوية والوظيفية والتواصلية التي يؤديها وذلك من خلال الملكة التي اكتسبها من استقامة الكلام وسلامته.

عند ابن جني (ت392)

جاءت نظرته للملكة مبنية على مفهومه للنحو قائلا عنها: «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شد بعضهم عنها ردا به إليها» (ابن جني، 1912، ص 42).

بمعنى أن تحصيل الملكة يكون من خلال تتبع كلام العرب ونحوهم وصرفهم وحتى وإن لم يكن ينتمي لتلك البيئة العربية، وهذا لا يكون في نظر ابن جني إلا عن طريق السماع الذي اعتبره من أهم الوسائل التي تعمل على اكتساب المتكلم للملكة. وهو أساس القياس (السيوطي، 2002، ص 29) حيث يقول في هذا الصدد: «ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا، لكن من أمكن ذلك قلنا به، ونبهنا عليه ممن نحن له متبعون وعلى مثله وأوضاحه حاذون» (السيوطي، 2002، ص 42).

إن نظرة العرب القدامى للملكة لا يوجد فيها اختلاف كبير ولاسيما من حيث التسمية ف سيبويه ينظر للملكة من باب استقامة الكلام والسلامة اللغوية، أما ابن جني فقد ربط مفهوم الملكة بالنحو، وكذا تتبع كلام العرب عن طريق السماع والقياس.

ونستنتج مما سبق ذكره أن كل من سيبويه وابن جني اشتركوا في ربط النحو والدلالة في اكتساب الملكة، والقدرة على التحكم في السلامة اللغوية والوظيفية التي تؤديها هذه الملكة وهي تحقيق التواصل.

الملكة عند اللغويين العرب المحدثين

لقد تناول الباحثون اللغويون العرب الملكة بأنها ذلك الرصيد اللغوي الذي يكتسبه الإنسان في أدنى مراحل تعلمه، وينميه فيما بعد حتى يصبح مهارة مكتسبة ثابتة وصحيحة يستعملها فيما بعد فيما يحتاج في عملياته التواصلية مع الغير بصورة سليمة وعفوية.

= عند عبد الرحمان الحاج صالح: يرى أن اكتساب الملكة اللغوية يقتضي اكتساب الملكة اللغوية النحوية والملكة التبليغية في آن واحد فالجمع بين اكتساب الملكتين يسهم بشكل كبير في اكتساب اللغة، ويشير الحاج صالح إلى نوع من التدرج في اكتساب الملكة اللغوية الأساسية أي القدرة على التعبير السليم العفوي، وهذا ما يؤكد عليه الحاج صالح قائلا:» ينبغي أن تكون الظروف التي يقع فيها تعليم اللغة أقرب ما يمكن من الظروف الطبيعية والأحداث العادية التي يعيشها الطفل أو المواطن المغترب عند اكتسابهما للغة محيط بهما». فكلما شعر المتعلم بأنه في جو طبيعي لاكتساب اللغة كلما سرع ذلك لاكتسابه لملكتها (بيناني، 2019، ص 241).

الملكة اللغوية عند الغربيين

= عند فرديناند دي سوسير

اللغة عنده بمثابة الملكة اللغوية التي ربط اكتسابها بالمؤسسة الاجتماعية لدى المتكلم وهذا ما أقر به سوسير في كتابه محاضرات في الألسنية العامة: «اللغة هي مجموعة من الاتفاقات الضرورية التي وضعها الهيكل الاجتماعي ليسمح باختيار أو استخدام ملكة الكلام لدى الأفراد «. فهي إذن مجموعة عناصر وبنى تنتمي إلى مجموعة لسانية توظفها على عكس اللسان، فإن اللغة

ليست فطرية وإنما تكتسب وتلقن، فالملكة عند دي سوسير تكتسب من الوسط الاجتماعي، وهذه الملكة تمكن المتكلم من القدرة على الكلام.

الملكة اللسانية من المنظور الخلدوني

تقوم نظرة ابن خلدون اللسانية المتعلقة بمفهوم الملكة على مجالين لتحديدها:

الملكة اللسانية العامة: وهي ملكة متعلقة بالبعد الذهني، ومدى قدرة المتكلم على تكوين هذه الملكة اللسانية باعتبارها جهازا نظريا يهتم بعلاقة الإنسان بالوجود، وبما أن الإنسان «مدنيا بالطبع» إذ لابد له من ملكات يستغلها في معاشه وتعامله مع الآخرين، فهي بمثابة جهاز نظري يزود به الإنسان حتى يتمكن من الوجود والتواصل (الميساوي، 2013، ص 159).

الملكة اللسانية الخاصة: ينبني تكوين الملكة اللسانية الخاصة على ثلاثة مبادئ وهي مبدأ السماع، ومبدأ التكرار ومبدأ الترسيخ.

مبدأ السماع: يعد السماع أبو الملكات في نظر الفكر الخلدوني، ويفضله عن المكتوب ويلتقي في هذه الرؤية مع عديد الدراسات اللسانية الحديثة، إذ بالسمع يتمكن المتكلم من نقل اللغة نقلا مباشرا، ولا يحتاج إلى طرق في فك رموز اللسان، بل يقتصر على الفهم والتأويل، وهما أساس العملية التخاطبية.

وقد استمد ابن خلدون مبدأ السمع من نظره في مفهوم التاريخ، إذ أن التاريخ العربي الإسلامي في جزء كبير منه كان قد بني على المشافهة، وهي أفصح وأصفى بالنسبة إلى اللسان العربي، فيعتبر أن التدوين وليد فساد اللغة، كما ركز ابن خلدون على مبدأ السماع في تكوين الملكة اللسانية، لأن السماع يعبر عن جودة الملكة وصفائها، ويرى أن على قدر جودة المحفوظ والمسموع تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدها (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 542).

يمثل السمع والحفظ قاعدتين أساسيتين في تكوين الملكة، فهما شرطان أساسيان لقيامها والحفاظ على جودتها، إذ كلما كان السمع والحفظ جيدين

استطاع المتكلم أن يتمكن من الحصول على ملكة لسانية جيدة، إذن فالملكة الخاصة صناعة يقوم بها المتكلم حسب مدى قدرته على السماع والحفظ، وهي تختلف من متكلم إلى آخر حسب تكوينه الاجتماعي والعلمي، ولذلك فهي تخص المهارات الفردية للإنسان عكس الملكة العامة التي هي شأن إنساني يتعلق بتركيبة الإنسان الفيزيولوجية، وقدرته الذهنية على تحصيل المعارف.

مبدأ التكرار: يقوم هذا المبدأ على الحفظ، وهو مبدأ تعليمي نابع من الثقافة العربية الإسلامية، ولقد رأى ابن خلدون في إطار نظرة شاملة إلى علم التاريخ أن مبدأ التكرار مفيد في تكوين الملكة اللسانية وبنائها بناء متينا، تقاس عليه جودتها وصمودها، ولذلك اعتبر أن «هذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرّره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 529).

وقد اشترط ابن خلدون في هذا المبدأ المخالطة وكثرة الاستعمال والمخاطبة إذ يقول: «وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة وتكرار لكلام العرب» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 530)، وهو ما اعتبرته الدراسات اللسانية الحديثة مبدأ مهما في تكوين المعارف الإنسانية المشتركة، فهو أساسي في عملية الإنتاج والفهم والتأويل باعتبارها مصادر أساسية في عملية التواصل الإنساني، فالنسج على منوال مشترك بين المتخاطبين يمكّن المتكلم من بناء ملكة لسانية ثرية بمصادرها الاجتماعية.

مبدأ الترسيخ: يرد مبدأ الترسيخ في تكوين الملكة اللسانية نتيجة لمبدأي السماع والتكرار، ولا يمكن للملكة اللسانية أن تستقر وتؤدي معناها، ولذلك فإن «حصول ملكة اللسان العربي، إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله (يعني المتكلم) المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 125).

ويبلغ مبدأ الترسيخ مداه حتى يصل إلى الجبلّة والطبع غير أن ابن خلدون يشترط في ذلك شروطا تبدو منطقية وعلمية يتمثل أبرزها في الحذق التام للمبادئ والقواعد التي قامت عليها الملكة، وذلك «أن الحذق في العلم والتفنين فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلا « (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 396). وعليه فإن مبدأ الترسيخ يتطلب الحذق والمهارة والسبق في حصول الملكة، فالملكة اللسانية مشروطة بقيود اجتماعية، وقيود لسانية تتأسس على السماع والحفظ والتكرار.

الملكة الكامنة والملكة الحاصلة في الفكر الخلدوني

ويقصد بالملكة الكامنة تلك الموجودة بالقوة في الذهن، وعلى أنها القوة النظرية في الدماغ، وهي التي تمكّن الإنسان من التعبير عن مقاصده. أما الملكة الحاصلة فيقصد بها تلك القوة التي تخرج إلى الفعل. وبالتالي يكون مفهوم الملكة كمونا بالقوة يولد وجودا بالفعل. ويتجلى تصور ابن خلدون لمفهومي الكمون والحصول من حديثه عن صناعة الشعر، فالملكة الكامنة صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية، «وإذا أراد الشاعر تحقيق ملكة الإبداع فإن ذهنه ينتزع من أعيان التراكيب الوافية بمقصود الكلام» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 436)، فالملكة الكامنة تراكيب كلية من اللغة، والملكة الحاصلة انتزاع تراكيب تناسب مقاصد المتكلم وتراعي ملكة اللسان العربي.

العوامل المؤثرة في اكتساب الملكة اللسانية

إن الملكة اللسانية كأي صفة إنسانية عرضة لأحداث تؤثر فيها وقد توسع ابن خلدون في حديثه عن التغيير الممكن حصوله في الملكة اللسانية خلال مسار اللغة وحياتها في المجتمع، وقدر سبب هذا الفساد أو التأثر إلى عوامل غير لغوية وإنما ناجمة عن أحد الأمور الآتية:

الاختلاط: وهو عامل من عوامل التطور اللغوي الذي يصيب اللغة وقد عبر عنه بعض الباحثين بمصطلح «تسمم اللغة» (ظاظا، 1990، ص 133). ويبدأ ذلك بسرب رشح من الدخيل من لغات أخرى تحتاج إليه اللغة فتتقبله بل تحسن مع تعاطيها له في البداية بمزيد من الانتعاش والقوة والنشاط يشجعها على تقبل جرعات أكبر فأكبر من هذا الدخيل. وهذا الأمر، حسب ما يرى ابن خلدون، كان سببا واضحا في فساد الفصحى لدى العرب، إذ يقول: «ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عله الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 633).

من خلال حديث ابن خلدون السابق عن فساد الملكة اللسانية نجده يخص العربية دون غيرها من اللغات بهذا الرأي والذي أعاده في مجمله إلى الاختلاط بالأمم الأخرى، وهذا الاختلاط كان نتيجة حتمية بعد مجيء الإسلام وانتشاره بين الأمم ودخول غير العرب إلى الإسلام ومخالطتهم أدت في النهاية إلى فساد الملكة اللسانية عند العرب.

يقول: «فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك، الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم والسمع أبو الملكات اللسانية» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 624).

وقد أولى ابن خلدون هذا الأمر عناية شديدة في مقدمته ولذلك لم يقص الحديث في موطن واحد منها وإنما تكرر هذا الرأي في غير موطن فيقول:» وإنما وقعت العناية بلسان مضر، ملا فسدت بمخالطتهم الأعاجم حيث استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والعرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فانقلبت لغة أخرى» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 634).

يقرر ابن خلدون أن الاختلاط سبب في الابتعاد عن الملكة الصحيحة وكذلك هو سبب في نشوء ملكة جديدة حاصلة من امتزاج ملكتين أو أكثر، إذ يقول: «وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل، فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجم، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن الملكة إنما تحصل بالتعلم وهذه الملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 637).

يقرر ابن خلدون أن اللغة العربية من خلال انتشارها في البلدان التي دخلت تحت الحكم الإسلامي، قد تفاعلت مع اللغات المحلية وقد نشأ عن هذا التفاعل والاختلاط ملكة لسانية أفادت بشكل أو بآخر من اللغات المحلية.

ونشأ كذلك نتيجة هذا الاختلاط تغير بعض أحكام اللغة الصوتية والإعرابية فقد هذا الإعراب بصورة عامة لكن بقيت دلالة الألفاظ على أصلها إذ يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره وإن كان بقي في الدلالة على أصله وسمي لسانا حضريا في جميع أمصار الإسلام» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 638)، وما أطلق عليه ابن خلدون مصطلح (اللسان الحضري) الناشئ عن الامتزاج بين اللغات هو ما يسمى عند المحدثين بالعاميات الإقليمية.

العجمة: الأعاجم صنفان: صنف أجنبي تماما عن العرب فيما نسبه لا يعرف العربية فهو لا يفصح، وصنف آخر مولد، وهو أيضا في عداد العجم، عند القدماء وإن أفصح، وقد كان لعلماء اللغة الأقومين رأي في كلتي الفتين السابقتين، حيث ربطوا بين (العنصر واللغة) ربطا قويا فاللغة للعربي صريح النسب، وهي لغة أصلية موثوق بها، أما الأعجمي أو المولد فلغته مصنوعة مختلطة غير أهل للثقة.

وقد نالت هذه المسألة أهمية كبيرة عند ابن خلدون في مقدمته وهي الملكة اللسانية وعوامل فسادها، حيث إن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي،

كانت لهم لغة أخرى وهم مضطرون للنطق بالعربية استعان بمن يخالطونهم من العرب وهم أيضا في هذه المرحلة المتأخرة لا يملكون ملكة اللسان المطلوبة، فقد ذهبت عنهم وبعدوا عنها، وإذا لجأ هؤلاء الداخون في اللسان العربي إلى تحصيل الملكة بالاستعانة بالقوانين اللغوية (المسطرة في الكتب) فإنهم لا يحصلون على إجادة اللسان بل يحصلون على أحكامه فقط (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 641).

أما السبب الآخر لقصور ملكة هؤلاء الأعاجم فيتمثل في أن النفس البشرية لا تتسع إلا لملكة واحدة وهي في الغالب لما يسبق إلى النفس من الملكات وإن حصل أكثر من ملكة تبقى ناقصة مخدوشة، ويمثل ابن خلدون على ذلك بشعر بعض الفقهاء والنحاة الذي سبقت إليهم ملكة أخرى غير الشعر، وكيف أن المستحدث من هذه الملكات يبقى دون المستوى المطلوب كما هو حال جميع الملكات الصناعية على الإطلاق، واعتبر مثله في اللغات فإنها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة فيقول: « وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة صار مقصرا في اللغة العربية لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل فقلّ أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى» (ابن خلدون، المقدمة، 2004، ص 624).

خاتمة

يبدو من خلال هذا البحث أن ابن خلدون قد تميز عمّن سبقه، فلم يقتصر دوره على الفهم والتلخيص، بل على توظيف الملكة في كتاب التاريخ وتعليل تغيراته، كما نجد بعض التوافق في تحليل الملكة بينه وبين سابقيه ومعاصريه.

كان للعلماء العرب السبق في التأسيس لمصطلح الملكة اللسانية، ويعد ابن خلدون الرائد الأول لهذا المصطلح. وملكة اللغة هي التي تحدد لسان كل قوم، وهي فطرية تولد مع الإنسان. والملكة تكتسب ولا تنشأ بالطبع. وتحصل الملكة بالسماع. وتتأثر الملكة الأولى بالملكات التي تلحقها، فتؤثر في درجة إجادتها.

الملكة اللسانية إلمام بالقوانين والمبادئ، وهي صفة راسخة في النفس ينبغي أن تكون مستحكمة ومستقرة لكي يتاح للإنسان القيام بالأفعال العائدة إليها وإتقانها. وترتقي الملكة بالمحفوظ الجيد، وتضعف بالعجمة.

إن الأخذ بقاعدة ابن خلدون في تحقيق المَلَكَة اللّسانيّة لدى الفرد؛ وتعلّم العربيّة سيكون لها شأن في تحقيق الرّقي بمنظومة العمليّة التّعليميّة التّعلّميّة، والمساهمة الفعّالة في تعليم اللّغة العربيّة سواءٌ أكان ذلك التّعليم للنّاطقين بها أو للنّاطقين بغيرها.

= = =

قائمة المصادر والمراجع

أبو الفتح عثمان بن جني. (1912). الخصائص. مصر: دار المكتبة المصرفية.

أبو نصر الفارابي. (1982). كتاب الحروف. بيروت: دار المشرق.

أبي بشر عمر بن عثمان. (بلا تاريخ). الكتاب. القاهرة: مكتبة الخزناجي.

أحمد بيناني - مريم بيناني. (2019). دور عبد الرحمان الحاج صالح في تطوير تعليم اللغة العربية. مجلة أفاق علمية، 241.

أحمد مختار عمر. (2008). معجم اللغة العربية المعاصر. القاهرة: عالم الكتب.

البشير عاصم المراكشي. (2012). تكوين الملكة اللغوية. بيروت لبنان: مركز نماء للبحوث والدراسات.

جلال الدين السيوطي. (2002). الاقتراح في أصول النحو. دمشق: دار البيروني.

حسن ظاظا. (1990). اللسان والإنسان. دمشق: دار القلم للطباعة والنشر.

خليفة الميساوي. (2013). المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم. الرباط: دار الأمان.

عبد الرحمان ابن خلدون. (2001). مقدمة ابن خلدون. لبنان: دار الفكر للنشر والتوزيع.

عبد الرحمان بن محمد بن خلدون. (2004). المقدمة. بيروت: دار الأرقم للطباعة والنشر.

عبد الرحمان بن محمد بن خلدون. (2006). مقدمة ابن خلدون. صيدا لبنان: المكتبة العصرية.

علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني. (1427هـ). معجم التعريفات. دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

فاخر عاقل. (1982). معجم علم النفس. بيروت: دار العلم للملايين.

مجمع اللغة العربية. (2004). المعجم الوسيط. القاهرة.

محمد بن مكرم بن منظور. (2005). لسان العرب. بيروت لبنان: دار صادر. العنوان: من صناعة العربية إلى ملكتها في الفكر الخلدوني.

Ferdinand de sousure (1916): course de linguistique général , wade baskins translation, p. 25-419.

فنار عبد الغني

عروس القدس: شيرين أبو عاقلة

كانت دوماً على مقربة منه، شاهدته خمسة وعشرين عاماً وهو يحصد الأرواح. لم يكن يفصلها عنه سوى موعد لاحق، موعد دقيق، لا يمكن لأحد تجاوزه، موعد محدد زمانه ومكانه سلفاً. وهي كانت قد تجاوزت مشاعر الخوف منذ قررت ترك دراسة الهندسة المعمارية وخوض الحياة الإعلامية حيث أيقنت أن توثيق الحقيقة من خلال الكلمة الصادقة والصورة المباشرة التي تعكس عمق الإحساس بالظلم والمعاناة والألم هو أيضا مقاومة.

أرادت أن تكون قريبة من أهلها وناسها وشعبها لتشاركهم نزيف عقود من الآلام اليومية المتواصلة، ولتوصل أصوات معاناتهم إلى العالم. كانت تخرج كل يوم من بيتها في بيت حنينا في مدينة القدس، تقود سيارتها نحو مكتبها في قناة الجزيرة في مدينة رام الله. تتجاوز المشاهد المؤلمة المتناثرة على جوانب الطرقات بكثير من الصبر والأمل. أحياناً كانت تصور بعض تلك المشاهد وترسلها.

هي ابنة القدس البارّة، يطل الشموخ والوقار المقدسي العربي من وجهها، تلك المزايا الأصيلة لمدينة القدس والتي تورثها لأبنائها. صوتها الهادئ والواثق بعدالة قضيته يرسخ في ذهن كل الفلسطينيين. لقد تناست حياتها الشخصية وآثرت العمل من أجل قضيتها. هي تشبه القدس في كثير من جوانبها. كانت

تتواصل مع زملائها ومع العالم ومع كل الفلسطينيين: الأصدقاء، الجيران، المرابطين، المعتكفين، الصامدين، الثكالى، الأيتام، الأطفال، الفقراء، الأسرى، أمهات الأسرى، المرضى، المنفيين، المبعدين، المشتتين، اللاجئين، المنسيين، ومع الشهداء، كانت ترى الشهداء في منامها. تعد تقاريرها بنفسها، تترصد الأخبار لتوافينا بكل جديد. كل فلسطين تعرفها وكل من يحب فلسطين يعرفها.

كنا نشاهدها في قلب كل حدث فلسطيني تقريباً، كانت حاضرة كلما حصل شيء ومقدامة وشجاعة جداً. كانت تسارع لنقل الحقائق، وكانت مستعدة أن تفتدي القضية بروحها. كنا نراها في باحة المسجد الأقصى، في باب العامود، في المقاطعة، في نابلس، في الخليل، في جنين الأبية، في بيت لحم، في سجن عسقلان حيث كانت أول صحافية تدخل السجن وتجري مقابلات مع الأسرى الذين حُكم عليهم بأكثر من مؤبد. وكنا نراها على تخوم غزة، وكانت تحب غزة وتدعو الله أن يحميها. في كل حدث كنا نراها، وفي كل مشهد يدمي القلب، وفي كل مأساة وفي كل ذكرى أليمة. كم كانت شجاعة! من أين استمدت كل تلك الشجاعة؟

من جنين الأبية، خرجت تقول: «جنين بالنسبة لي ليست قصة عابرة في مسيرتي المهنية أوفي حياتي الشخصية. إنها المدينة التي يمكن أن ترفع معنوياتي وتساعدني على التحليق عالياً».

وقالت أيضاً: «إنها تجسد الروح الفلسطينية التي في بعض الأحيان ترتجف وتقع، لكنها تفوق كل التوقعات وتنهض لمتابعة رحلاتها وأحلامها».

سبحان الله! كانت على يقين أن جنين ليست قصة عابرة في حياتها. لقد وُلدت مرة أخرى في جنين، ففي عام 2002، شهدت الملاحم والبطولات

العظيمة لأهل جنين، فقد وُلدت هناك شيرين جديدة: شيرين أكثر قوة وشجاعة وصلابة وعزة.

لقد عاشت الملاحم وبحثت مع الأرامل والثكالى عن جثث أبنائهم. كانت تنسى أن تتناول الماء والطعام. كانت هناك بلا مأوى واستضافها السكان في بيوتهم، واضطرت في بعض المرات للمبيت في المستشفيات. ومن جنين سوف تبعث يوم الحساب.

وفي صبيحة يوم الاثنين، 9 أيار (مايو)، الشهر الذي يحيي فيه الفلسطينيون يوم النكبة، توجهت شيرين إلى جنين بعد أن أرسلت رسالة نصية قصيرة إلى قناة الجزيرة التي تعمل مراسلة لها، مفادها أن هناك أنباء عن اقتحام جديد لمدينة جنين وأنها ستوافي القناة بالأخبار حالما تتوضح الصورة. كانت هي الصورة الحيّة والمباشرة التي تناقلت الكرة الأرضية اللحظات المفصّلة لإعدامها ببث مباشر.

لقد أعدمت في مكان هادئ بالقرب من مقبرة جنين. أطلق عليها قناص بعناية فائقة ومركزة رصاصا حيا أصاب وجهها وهتك جمجمتها. كان القناص يراقبها وتركها تمضي وتقترب، إلى أن وصلت إلى مكان مكشوف فلا يعود يمكنها الاختباء ولا الفرار، مكان يقصده الصحفيون عادة ليبثوا الأخبار منه.

شيرين أبو عاقلة ارتقت روح شيرين وسقط الدرع الواقي الذي كتب عليه بخط عريض وباللغة الإنجليزية كلمة صحافة (press) بلون أبيض لافت للانتباه، وارتوت الشجرة الوحيدة في الشارع من الدماء النازفة من جمجمة شيرين. ولم تستطع شيرين إرسال كلماتها المشهورة: «كانت معكم شيرين أبو عاقلة، جنين»، بل كانت أخر كلماتها تحذير لزميلها الصحفي علي السمودي عندما بدأ القنص. نادت عليه: «علي، علي».

وآخر الأصوات التي سمعتها وهي ترتقي لملاقاة ربها: صوت القنص الكثيف، وصوت ينادي: «إسعاف، شيرين، اسحبها، إسعاف، إسعاف، إسعاف».

د. فراس ميهوب

عندما اشتعل الحريق

عندما اشتعل الحريق في غرفة أرشيف الإذاعة الوطنية، وصل فريق الإطفاء بسرعة، نصف ساعة كانت كافية للسيطرة الكاملة، الخسائر مع ذلك كانت فادحة، آلاف من الأفلام النادرة والتحقيقات المهمة صارت رمادا، نسخة أصلية وحيدة من مسلسل قديم اختفت إلى الأبد.

لا أحد يعلم كيف اندلعت النار، أغلب الظن أن سيجارة منسية أضرمت الشرارة الأولى، التدخين ممنوع بتاتا، لكن المخالفة طبع إنساني أصيل، قيل إن مخرجا مشهورا دخل للبحث عن شريط لبرنامجه ونسيها على أحد الرفوف.

نظرية المؤامرة تقول إن مخربا هو من تعمد وضع النار، البحث جار عنه، قد يكون عاملا في المكان، أو تسرب إليه إهمالا، أو بمساعدة موظف ضعيف النفس.

بعد الكارثة، حان وقت إحصاء الأضرار، فتح دفتر كبير، وبرنامج على الحاسوب، ألف وسبع أشرطة، واحد وستون ملفا ورقيا، سبع كراسي خشبية، طاولتان، ثلاثة أقلام زرق واثنان أحمران، قلم أسود واحد.

الجرد استمر، كل شيء تم إحصاءه، والخسائر مهولة ماديا ومعنويا، جزء هام من ثقافة وفن الشعب استحال إلى رماد.

استعاد المذيع المشهور رباطة جأشه، خرج في نشرة الثامنة ونصف مساء:

= لا خسائر بشرية تذكر، الحمد لله، المخرج الكبير شامل العواينة بخير، ولا صحة للأخبار التي تتحدث عن وفاته محترقا، إصبع يده اليمنى الوسطى أصيبت بحرق بسيط.

المذيعة سناء الشاعر لم تصب، هي الأخرى، إلا بحرق طفيف.

المتضرر الثالث، رئيس قسم الأرشيف، اسودَّ رأس أنفه من الدخان فحسب.

في هذه الأثناء، تحاول أم عماد الاتصال بجوال زوجها دون جدوى، الرجل ساع قديم في أرشيف الوزارة، ويقترب بهدوء من سن التقاعد.

بعد يأسها، توجهت إلى مقر الإذاعة، كان الطوق الأمني قد ضرب حول المكان، رجت حارسا أن يسمح لها بالدخول، رق قلبه لها.

في قاعة الاستقبال الكبرى، كان مدير الإذاعة يدلي بتصريحات صحفية تحت أنظار الكاميرات:

= تمكنَّا من إطفاء الحريق،...

تجاهلته المرأة المذعورة، وذهبت إلى مكتب الأرشيف، صادفت نبيل الأشتر زميل زوجها:

= أين إسكندر، لا يرد على اتصالاتي؟

= آه، لم أره منذ الصباح، دقائق قليلة قبل اندلاع الحريق.

أحسّ الرجل بخطورة الموقف، فأبو عماد لا يغادر مطلقا إلا مع نهاية الدوام.

مع أم عماد، دفع الباب المودي إلى الغرفة الكبيرة التي صارت خرابا، الدخان كثيف وخانق.

أضاء بهاتفه المحمول زرا صغيرا، لفَّتْ أم عماد على فمها طرف حجابها الأبيض، سلكٌ رفيعٌ من النور تخلل المكان المظلم، خشب متفحم ملتصق ببقايا بلاستيكية مصهورة، رماد ما كان أوراقا غطى الركام المختلط على بلاط بلا ملامح.

= لا بدَّ أنّه خرج، لم نسمع عن أي ضحية.

استعجل نبيل بالاستنتاج قبل أن يسمع مع أم عماد صوت استنجاد مبحوح.

من الزاوية البعيدة، وتحت عشرات الأشرطة المتكومة، بدا شبح إنسان بلا لون.

أزاحا بالأيدي العارية القطع المشوية، ووصلا إلى ما يشبه جسد إنسان، ومن ناحيته أتى ما يشبه بثا مشوشا:

= كدتُ أفقدُ الأمل.

زكي شيرخان

إحباط

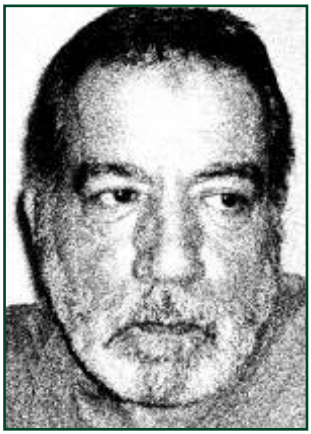

مجلسها على الرصيف أمام المقهى التي اعتادت ارتيادها، اتخذته، وأمامها قهوتها، وفي يدها سيجارتها، تراقب المشاة باتجاهين، وكذا الحافلات الحمراء. قبلها، وعندما كانت تتناول إفطارها البسيط في الفندق الذي لا تغيره كلما زارت لندن، اتصلت صديقتها مُخبرة إياها أنها ستكون عندها الساعة العاشرة. ألقت نظرة على ساعتها، أمامها ما يقرب من ساعة. الجو، حسب الأنواء الجوية، سيبقى مشمسا، ربما إلى الليل، وهذه فرصة للسير على الأقدام لمسافات طويلة.

رغم الألم الذي يجتاحها، تصر على قضاء أيامها المعدودة في الفندق ذاته، والجلوس في هذه المقهى بالذات. عاهدت نفسها على ألّا تنسى من شاركها المكانين بعد أن فقدته إلى الأبد. احتفظت بأشياء كثيرة كان يملكها، وزعتها في بيتها، ساعته اليدوية، قلمه، قنينة عطره، بعض أربطة عنقه، بعض قمصانه.

أكثر ما كانت تخشاه، عندما رحل، أن يكون نسيا منسيا بعد حين، كما كل الراحلين. رغم السنوات الطويلة إلا أنها لم تنسه. تبكيه كثيرا. تشتاق إليه. تحن لحكاياته. تفتقد كتفه التي كانت تضع رأسها عليه كلما جلست إلى جانبه. «ها هو ذا أجوار رود باقٍ، وتقريبا، كما عهدتَه»، إجابة متأخرة عن سؤال طرحه

ذات يوم وهما يحتسيان القهوة في نفس مكان جلوسها في نفس المقهى، «ترى متى أُنشأ هذا الشارع؟»، وممازحا «وإلى متى سيظل صامدا؟».

ثلاثة جمعتهم الدراسة في نفس الجامعة، هي وهو وزميلتهما الإيرلندية، والتي أصبحت صديقتها المقرّبة، وجمعتهم السياسة. هي، كما كانت تصف نفسها «يسارية بالفطرة». هو، كان منتميا لفصيل يساري يكافح لتحرير أرضه المغتصبة. وثالثتهم، شيوعية انتماءً. يساريون حالمون بمحيا عظام رَمَّت أو كادت. كان هايد بارك ملعبهم. لا يكلون الجدال، والنقاش، وإيراد الحجج. «التأريخ لم ينته بعد، أخطأ فرانسيس فوكوياما فيما ذهب إليه. فكما أن اليسار مأزوم، فالديمقراطيَّة الليبراليَّة هي الأخرى مأزومة». هذا ما كان مقتنعا به متكئا على المعايير الماركسية.

لم تكن، هي، بالمكترثة بهذا النقاش الفلسفي. قضيتها هي أرضه المغتصبة، وشعبه المُهجّر، وكثيرا ما طلبت منه أن يركز الجهد على قضيته.

«لم أنسها، ولم أقصّر فيها»، كان يجيبها في كل مرة.

قضيتها الأخرى، هي بلدها وشعبها المبتليان بطاغية دمرهما بحربيه. وعندما قرعت طبول الحرب الثالثة، وقفت ضدها، وخرجت مع المتظاهرين المنددين، الآملين أن تخمد رغبات من يريد إشعال نيرانها. وعندما سألها مراسل كان يغطي المظاهرة عن سبب اعتراضها على الحرب على بلدها بعد أن عرف جنسيتها، أجابت:

«أتظن أن من يريدون إشعال الحرب يهمهم من يحكم شعبي؟ أسلحة الدمار الشامل التي يملكها الدكتاتور ما هي إلا كذبة انطلت على أغلبكم وصرتم ترددونها كمُسلّمة، وقريبا سيعترف مروجو هذه الكذبة أنفسهم، وسيقدمون التبرير المناسب الذي سينطلي عليكم كالعادة. هذه الأسلحة دمرها مفتشو الأمم المتحدة كلها على مدى السنوات الماضية. يريدون تخليصنا من دكتاتور سكتوا عنه عقودا، لا بل ساندوه في حربه تحقيقا

لمصالحهم. لَمْ يتركونا نقضي عليه عندما ثرنا عليه بعد حربه الثانية؟»

* * *

تحولت الزمالة بينها وبينه إلى إعجاب، ثم حب انتهى بالزواج الذي لم يدم إلّا أعواما قليلة لموته المفاجئ، والذي لم تظن أنها ستخرج من صدمته سالمة. وقفت صديقتها إلى جانبها محاولة، مع طبيبها النفساني، تجنيبها الانهيار. لم تنهر، ولكنها لم تسلم من الكآبة التي لازمتها، ولازمها إدمان أدويتها.

بعد رحيله، سكنها هاجس نسيانه. عاهدت نفسها أنها لن تفعل، فاحتفظت بأشيائه الصغيرة. كانت تحدثه كلما خلت إلى نفسها أو أوتْ إلى سريرها. وتقول لصديقتها «يحدثني كل يوم»، وهذا ما كان يقلق هذه الصديقة التي ظلت على وفاءها. كانت تصل إلى أسوأ حالاتها عندما تمر بأماكن جمعتهما. نصحها طبيبها أن تغير سكنها، وأن تُخفي ما احتفظت به من مقتنياته. أجابت:

«وهل عليّ أن أغير أرصفة لندن وشوارعها؟ في أي بقعة كنا معا، أجده معي».

خاطرت صديقتها، ذات مرة، رغم إدراكها أنها، ومن المحتمل، ألا تتقبل الأمر، وربما سيزعجها:

«لم لا تتركين البلد، ولو مؤقتا؟ سنة، أو أكثر، لا أدري».

فقط وجمت. حدّقت بعيدا. لم يظهر على مُحَيّاها علامات غضب، أو إنكار.

«المؤسسة التي تعملين فيها لها فرع في السويد، أليس كذلك؟ لم لا تطلبي نقلك إليها. يمكنك أن تشرحي وضعك لمديرك. لا أظن أن الرفض سيكون رده. ولو لبضع سنوات. بيئة جديدة. ثقافة مختلفة عما ألفتيها. ومن يدري، ربما...»

سكتت عندما لمست غضبا ترجمته العيون الواسعة التي تمتاز بها.

«آسفة، لم أقصد ما جال في خاطرك. أدرك حزنك على فقدان زوجك ووالدك

ووالدتك. والقلق الذي عشته على أختك قبل أن تلتجئ، مع زوجها، إلى أستراليا، وأخوك الذي هاجر إلى كندا. وخيبة أملك مما آل إليه بلدك. ولا أريد أن أكون واعظة وأقول إنه ما يزال في الحياة ما يستحق العيش من أجله».

* * *

بين الفينة والأخرى، كانت تأتي إلى لندن في زيارات عمل قصيرة. لازمتها عادة النزول بنفس الفندق الذي قضت أول ثلاثة أيام زواجها فيه، ونفس المكان في نفس المقهى. تجلس وأمامها القهوة وتدخن متأملة المشاة، وحافلات النقل الحمراء. تنتظر صديقتها ليقضيا يوما في السير على الأقدام. وإن كان يوم التجمع الأسبوعي في الهايد بارك، فإليه تشدان الرحال. تجلسان مستمعتين دون أدنى رغبة في الدخول في سجال. فكرتْ بصوت عالٍ:

«كل شيء تغير. لم يصمد اليسار. واليمين ينحو نحو التطرف أكثر. يكاد الفارق بين أحزاب اليمين واليسار أن ينعدم. بعد أن انهارت قلعة ما كان يعتبر القلب، صار توجيه الضربات للأطراف أيسر عليهم، ويأتي أُكله. إلى أين يمضي عالم التوحش هذا؟ حتى التمرد الذي يظهر هنا وهناك بين فترة وأخرى في بقع متناثرة من الكرة الأرضية أضعف من أن يؤثر وإن كان، في بعض الأحيان، تحديا مزعجا ولكنه غير مقلق، وليس خَطِرا. اختفت الأيقونات الملهمة، وكأن رحم الزمان عَقُم عن إنجاب غيرهم».

لم تعلق صاحبتها. اكتفت بهزة من رأسها.

بدت في زيارتها الأخيرة، بصحة جيدة. صار صمتها شبه الدائم أقل. لم تعد تضع على عينيها النظارة السوداء الداكنة التي كانت ترى كل ما حولها غامقا، وتحرمها من التمتع بألوان كل شيء. بدأت ظلال ابتسامة تظهر على شفتيها أحيانا. صارت تعتني بهندامها أكثر. هذا ما دفع صاحبتها إلى الاعتقاد بأنها بدأت تتخطى المرحلة الصعبة التي طالت أكثر مما توقع طبيبها. وعندما أبدت

ملاحظاتها له، والذي هو صديق زوجها، نصحها بعدم التمادي في التفاؤل.

«بعض المرضى تظهر عليهم علامات التحسن، إذ نراهم يقبلون على الحياة بنهم، ولكن هذه الحالة قد تسبق التدهور المقلق، كأن ما يمرون به أشبه بصحوة موت» كما شرح لها.

أزعجها تشخيصه، وأقلقها. هي تحبها وتتمنى أن تعود كما كانت أيام الدراسة، مملوءة بالحيوية، ومقبلة على الحياة، ولا يعرف القنوط إليها سبيلا. ليس في قاموسها مفردات اليأس. «من المبكر فقدانك».

* * *

في اليوم الذي صادف مرور عشر سنوات على بدأها العمل في السويد، غابت عن العمل. اضطر المدير أن يؤجل الاجتماع المخطط له، لأنها كانت العنصر الأساسي فيه. في اليومين التاليين لم تحضر. باءت كل المحاولات المتكررة للاتصال بها بالفشل، ولم تجب على الهاتف. ذهب أحد زملائها إلى شقتها. لم تستجب لطرقات الباب.

حضرت الشرطة إلى شقتها بعد إبلاغها. وجدوها ممددة في سريرها. يداها مشبوكتان على صدرها، وإلى جانبها علبة دواء فارغة.

«إنها ميتة منذ أيام. يبدو أنها حالة انتحار» قال من قام بفحصها.

«لن نجزم إلا بعد التشريح. تقرير الطبيب الشرعي سيكون الفيصل»، أجابه قائد الدورية.

شفاء داود

شاي الزنجبيل

«لا تبدئي موضوع التعبير بحرف، أيا كان الحرف». هكذا قالت معلّمة التعبير في الصف الرابع الابتدائي. ومنذ ذلك التنبيه والنهي وحتى اليوم لا تفلح أن تبدأ مقالاتي إلا بحروف.

النص الذي يبدأ بحرف جر يجرّ من بعده أسراب إلهام وحكايا. والنص الذي يبدأ بحرف نفي أو نهي ينفي استبداد كليهما خلال سطوره وينسف سيطرة فكر الآمر والناهي معا ويقول بدهاء: إنّا ها هنا كاتبون ولا سلطان على الحرف يا ولدي.

لو أنّ معلّمتي أدركت حينها معنى أنّ كلّ ممنوع مرغوب لما نهتنا عن مثل ذلك. لو أنّها تمكّنت من إيحاء لا مباشر تغرس لنا به الفكرة في عقولنا الغضة لقلنا لها سمعا وطاعة ورحبنا بما علّمتنا في كتابات عمرنا القادمة كلّ ترحيب.

كانت رزان معلّمة لطيفة، لاق بها تدريس اللغة العربية كثيرا وليس بالكلّ يليق. كانت تحبّنا وكأنّنا بنيّاتها. لا أفهمُ بعد كيف تستطيع الأنثى أن تهب الحنان المتدفّق وعاطفة الأمومة قبل أن تجرّبها. الذي لا أنساه أنّ معلمتنا تلك كانت أوّل إنسانة في حياتي أسمع من الطالبات اللاتي تكبرننا في ساحة المدرسة عنها أنّها لا تنجب.

هذا قدرٌ مكتوبٌ لا اعتراض عليه، ولكنّه كسرة القلب التي لا نستطيع تجاهها تصرّفا مثل الرضا بأنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى. قدرٌ يستوجب إيمانا ثابتا بِـ: «وَلسوف يعطيك ربّك فترضى» (سورة الضحى. الآية 5)، ويقينا تاما بـ «إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ « (سورة التغابن. الآية 14).

وكذلك أن ربّ الكون يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء. حين اختار لنا هذا الصرف، اختاره ليصرف عنّا شرّ القضاء جلّ شأنه في علاه.

كانت ليّنة، تدخل الصف كنسمة، تغمرنا بالحب ببسمة، عطوفةٌ متفهّمة، تدرك أنّنا نعيش ربيعنا العاشر ليس أكثر، وأنّ الحياة كلّ الحياة ما زالت أمامنا كي نتعلّم ونتقن ما يصعب علينا إتقانه الآن.

حين ينتهي الفصل الدراسي، كانت تستأذن من بعضنا أن تحتفظ بدفاتر تعبيرهنّ للذكرى، لعلّها كانت ترى بين سطور اللغة ومفرداتها أبناء لها، لعلّها كانت بذلك لا تنسانا، ولعلّها قررت بينها وبين الرضا أنّ كلّ هؤلاء البنيّات بنيّاتي. ربّما، ربّما.

فرّقت جمعنا الأيام وحال بيننا الزمان دون أن نعرف سرّ حبّ جمع دفاتر التعبير ذاك.

ستكبر وأكبر. الجميع يكبر.

حين تكبر، إن كبرت في بيئة معطاءة محبّة للخير سويّة، ستتمنّى لو أنّك تستطيع مساعدة كلّ محتاج بما ملكت يمينك وما استطعت إليه سبيلا، جُبِلَ الإنسان على حبّ الخير. الطبيعي في الحياة أن تمدّ يد الإحسان، أن يعمّ الخير أينما مررت في هذا العمر لأنّ نشره أصل الوجود وسرّ الخلود وقلّ من يدري.

في الصف الأوّل ثانوي، التقيت معلّمة ثانية لا تنجب أيضا، كان ذلك ثقيلا على قلبي، وكان مخيفا بعض الشيء. لنقل الصدق: كان يخيفني خوفا بليغا أكثر من أي شيء.

في كلّ تصوراتي عن مستقبل حياتي أسمع صخب أطفال، لا أعرف من هم ولا كم عددهم، لكنني بالتأكيد سأكون يوما ما أم. أنا أمٌ قبل أن أكون كذلك، أمٌ حين أدعو لمن أحب في ظهر الغيب، أمٌ حين تدمع عيني وأتمنّى الخير لغيري، أمٌ حين أتمنى أن أفتدي بروحي من لا أمّ له، أمٌ حين أطهو طعاما لذيذا بنظري ويخطر على بالي طالبٌ مغترب يشتاق لرائحة طبخ الأمهات الشهيّة، أمٌ حين أطرّز بالإبرة والخيط، وحين أكتب بالقلم على الورقة، وحين أحضّر حفلة الشاي وأخبز بقربها كعكة التفاح بالجوز والقرفة.

معلمتي الحنون اسمها فاتن، خمسة عشر عاما مضت على زواجها، كلّما وصلت إلى الشهر السادس أجهضت، المدرسة كلّها تدعو لها كلّ حمل أن يثبت ولا ثبات. ولله الأمر من قبل ومن بعد. تخرّجت من الثانوية وبقيت على اتصال ببعض معلّماتي، مرّت عشرٌ من بعدها عشرٌ أُخَر وما زلت أتواصل معهنّ، لِمَ لا وهنّ من قال فيهنّ شوقي قولته البليغة: «كاد المعلّم أن يكون رسولا».

أخيرا أنجبت حبيبتنا فاتن. سبحان المعطي حين يعطي كيف يعطي وأين ومتى! سبحان الرزّاق حين يرزق كيف يرزق وأين ومتى، أنجبت لنا توأما جميلا بنتا وصبيّا.

معلّمة الأحياء أمٌّ أيضا، في كلّ المرّات التي كانت تضمّني فيها كنت أشعر أن هذا الدفء دفء أمّ، أنّ الله سيعطيها بلا شك، متى؟ لا أعرف. كيف؟ لا أعرف. ولكنّه سيعطي، أنا متأكدة أنه سيعطي، الله لطيفٌ بعباده، وأنا على يقين بذلك.

الله سيعطينا، ربنا سيمنح، بعض منعه عطاءٌ أيضا، لكننّا غالبا للأسف لا نفهم، ولا نطيق أن نفهم.

في المرحلة الجامعيّة، التقيت المديرة منيرة، كانت شعلة نور ونار، همّةٌ متوقّدةٌ وعطاءٌ لا محدود، كان الصرح المدرسيّ صباحا وعصرا يحتاج استشارتها في الشاردة والواردة، كانت من كلّ علم تنهل وفي كل شيء تفهم، أوتيت من كلّ شيء ولها حظٌّ من حبّ عباد الرحمن عظيم.

لم يكن المنع في هذه الذكرى ألا تصير المعنية أمّا فحسب، المنع ألا تكون زوجة أصلا، الحسناء التقية النقية البهية لم يكتب لها من قسمة الزواج حظ، لماذا؟ لا أعلم ولن نعلم. الذي أعلمه أنّ أولئك الذين يرحّبون بمنع الله مثلما يرحّبون بعطائه يبدون أجمل بكثير ممّن سواهم، على صفحات وجوههم رضا لا يشبهه رضا، يحفّ ملامحهم جمالٌ ليس يشبهه الجمال.

هل كتبتُ جمال؟ يبدو أني فعلت.

جمال أيضا عاش وما زال يعيش مثل المديرة منيرة، تنقّل في البلاد مهجّرا مرّة ومهاجرا مرات ساعيا إلى رزقه. ومضت به الأعوام دون أن يلقى شريكة العمر

التي تكمل معه مشوار الحياة، كان له من اسمه نصيب. عينان زرقاوان كأنّهما عمق البحر أو كأنّهما سعة السماء، بسمةٌ فتّانةٌ تخطف دعاء أمهات الريف خطفا لا نظير له، غير أنّها لم تستطع أن تخطف قلبا واحدا وتهرب به وبقلبه إلى المستقبل البعيد.

في كلّ المرات التي كان يمازحنا فيها أنّ الأعوام تمضي عاما تلو عام دون أن يعثر على أميرته، كنت أتساءل بيني وبين نفسي: هل كان يضحك للتوّ فعلا ضحكة حقيقيّة نابعة من قلبه؟ أم أنّه الرضا ثانية وثالثة وعاشرة، الرضا بأنّ لله حكمته التي لا نعلمها وليس بالضرورة أن نعلم، كلّ ما علينا أن نرضى ونثق تماما أنّ من رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط.

كانت الفتيات يتغامزن وتتهامسن بلهجتنا فيما بينهنّ: «عريس لقطة، الله يهنّي سعيدة بسعيد، نيّالها اللي حتتصبّح كل يوم بهالعيون الحلوين وتسبّح ربّ العالمين كل ما شافتن صبح ومسا، نيّالها اللي حتسكن هالبيت واللي حتركب معه هالسيارة، نيالها ومية ألف نيالها اللي ربنا بيرزقها واحد شاطر بالطبخ ومزاجه عالي فيه ورايق من قلب وبيحبّ الموسيقى وبيحبّ الورد وبتحبّه الحياة».

مع أنّهن كنّ يسارررن بعضهن بذلك، لكن واحدة منهنّ لم تتمنّ أن تكون صاحبة لقب الـ «نيالها» ذاك، ربّما لأنّ صاحب العينين الأخّاذتين لم يكمل تعليمه المدرسي، لم يفلح في ذلك، ملّ المحاولة فاتجه للعمل مباشرة فأفلح، لكنّه زمانٌ لم يعد يؤمن بفلاح لا توثّقه بعض الشهادات. شاب جمال وما شابت روحه، وكم في الكون مثل جمال، لكنّنا أحيانا لا نرى أبعد ممّا تحبسه جدراننا الأربعة.

هل حدّثتكم عن ألمى؟ ألمى ليست مثل جمال ولا فاتن ولا منيرة ولا رزان. تزوّجت زواجا عجيبا عمّه الرضا أيضا، زواجٌ تطلّب كثيرا من وعي وشجاعة، كانت مخطوبة حين اتصل بها تيم يريد رؤيتها على عجل، وضع رأسه بين كفّيه وأطرق. وساد صمتٌ طويل، ازدرد ريقه وتحشرج الصوت بالألم ثم همس للصبية التي يحب:

«اسمعي يا بنت الأكرمين، اللي عرفته اليوم لازم تعرفيه، ومن بعدها إلك القرار، يا تضلّي، يا إما بيكون ما إلنا نصيب نكفّي سوا المشوار».

لم تستطع ألمى ألا تبدي انزعاجها ودهشتها، كانت متأكدة أنها لم تتصّرف أي تصرّف غير لائق قد يزعجه، فلماذا يقول لها مثل ذلك؟

دمعت عين تيم دمعة كان لها صوت:

«استلمت قبل قليل نتيجة تحليل لم أسمع بمثله من قبل، لكنّ تأخر إنجاب شقيقيّ سنينا أقلقني ودفعني للبحث حول ذلك. يقول الطبيب أنّ حالتنا وراثيةٌ نادرة ولكنّها موجودة، أنا وإخوتي لا ننجب، ولن ننجب، ومن حقّك قبل أن تنتقلي إلى بيتي إن كنت ستنتقلين بعد ما سمعتِ أن تعرفي ذلك».

كثيرا ما نجد أنفسنا في الحياة عند مفترق طرق محيّر لا نعرف أيّ واحد منهم نختار، يحتار القلب والعقل إلى أين نمضي، أنصتت ألمى لصوت قلبها ولم تخبر أحدا من عائلتها بما سمعت قبل الزفاف، لأنّ تيم منذ طلبها خاطبا صار عائلتها الأولى والأخيرة الصغيرة والكبيرة. والله حين كتب ذلك كتبه لحكمة، ويا مرحبا بكلِّ حكمة تصادفنا في العمر من أقدار الله.

إنها الحادية عشر ليلا، اتصل أخي وما عهدته في مثل هذا الوقت أن يتّصل، قبل أن يسأل عن الأحوال قال: افتحي الباب، وصلت.

هل تعرف تلك الدقيقة التي يعصف خلالها ألف سؤال وسؤال في ذهنك عصفة واحدة؟ بالتأكيد تعرف.

جميعها راحت تخنقني بلا استثناء، صوتٌ ما ينادي: خير إن شاء الله، ما دام الطفلان بخير فأنت بخير، ما دامت أمك بخير فأنت بخير، ما دامت عائلتك بخير فأنت بخير. ورحت أتساءل: لماذا؟ لماذا ما زلت خائفة؟

لماذا نخاف من مكالمات الليل الطارئة وطرقات أبوابه المفاجئة؟ لماذا يفزعنا قرع الأجراس الذي يفرحنا نهارا؟ لست أدري، ورحت أهذي بقلق: يا رب ما يقول إنّه في حدا مات، يا رب.

تذكّرت للتوّ جارنا الطيّب كم بدا منهكا صباحا، كبر كثيرا، أحبّ رؤيته وأستبشر بها خيرا، لا أريد أن أسمع خبر رحيل أحد يعزّ عليّ الآن.

فتحت الباب على وجل، تبسّم ضاحكا صاحب الظلّ الطويل الذي تحلو برؤية بسمته الصباحات: رفع كيسا مليئا بالكرز الأخضر الجارينك الذي يندر أن يصل إلى هنا، وقال: «من مرسين. خالك بعته إلك وبس».

خالي: من مثل خالي؟ تبسّمت. وبدمع الحنين غصصت.

وخفق قلبي واشتاق أن أصير إلى بلاده في لمح البصر، أن أعانقه، أن نضحك ونسهر ونثرثر معا. مضى ثلاثة عشر عاما بالفعل منذ آخر لقاء بيننا. متى سنلتقي يا رب؟ متى؟ متى يا متى؟

لدى كلّ منّا في هذا العمر فقد وتحدّ وصبر وحاجة، تختلف حاجاتنا وتتفاوت درجات صبرنا ولنا في دلالات نهايات بداياتنا في التعامل مع حوادث الزمان عبرة بالغة لمن كان له قلب به يتأمّل تفاصيل رحلة الحياة.

كلّما تعلّمت أكثر، ستظمأ للفهم وطلب العلم أكثر. كلّما صقلت مهارتك، ستحبّ أن تجرّب جديدا وتحاول أكثر.

تجمع المال فتحبّ أن تجمع منه أكثر وأكثر، والفطن منّا من أدرك باكرا أيّ أكثر لا بدّ له من التوقف عندها والاكتفاء، لأنّ درب الأكثر درب شائك طويل لا نهاية له ولا حدّ، يأخذك شيئا فشيئا من دائرة الشغف إلى فراغ الطمع لتجد نفسك مكتئبا من بعد رضا حزينا من غير سبب.

كنت في تلك الدائرة، كان العمل والسعي على الرزق ما به أفكّر، كنت أبذل الأسباب وأذلّل الصعاب أو هكذا كنت أظنّ، كان اليوم ما بين السابعة صباحا وحتى السابعة مساء مليئا بالصّور، كنت أرى نماذج من الحيوات الكثيرة في اليوم الواحد لا تحصى ولا تعدّ، وكانت الكتابة ملاذي الذي أسرّه بعض ما في يومي رأيت.

أرسلت السيدة ياسمين رسالة: سيتأخّر الأطفال ساعة، إذا أحببتِ أن ترتاحي قبل المجيء قليلا فلا بأس، وإذا كنت على وصول فأهلا وسهلا ومرحبا. شاي الزنجبيل بانتظارك كالعادة.

كنت قد وصلت بالفعل، قالت إنّها تعرف أنّي شغوفة بالتصوير، وأحبّت أن تبلّغني أن آخذ وقتي في ذلك مع زهور الحديقة إلى أن يصل الأطفال ونبدأ دروس المتابعة المسائية اليومية. كنت متعبة، والمتعب أحيانا لا يستلذ بهواية ما لم يرتح، نحتاج لذلك الزنجبيل اللاذع أحيانا كي نصحصح، كي نركز، كي ننتعش، كي نعيش.

لم يسبق لي أن جلست وياسمين وحدنا على انفراد، لا تشبهني، ربما أنا لا أشبهها، لا يهم، المهم أنّ علاقتنا رسميّة جدا، علاقة معلّمة بأم تتابع لها دروس أبنائها ليس أكثر. في ذلك العصر كانت تريد أن تتحدّث ياسمين، من حظّها أنّي كنت مستعدّة كي أسمع، فانطلق الحوار بيننا وكأنّنا صديقتان منذ زمن.

بيتها هادئ مرتب متناسق الألوان جميل جدا، يشبهها، يشبه الطفلين، بيت لطيف ألوانه زاهية كما أحب، تحيط به حديقة خارجيّة صغيرة يزيّنها كيفما اتفق الفلّ والريحان، وتميّزها شجرة زيتون، عند مدخل البيت. وفي الصالة الرئيسيّة على يسار درجات الدرج ترى نباتات داخلية من أنواع شتى تتوزع في كلّ الأنحاء فتجعل من المكان حديقة حقيقيّة ذات بهجة.

منذ الزيارة الأولى انتبهت إلى أنّ لوحات المنزل تحمل توقيعا واحدا، هذه الأم تحبّ الفن. هذا شعور لا أخطئه، في بيتها حياة أحبّها، تحيا حياتها الخاصة كأنثى متوازيا مع حياتها كأم وزوجة ومربية. لا ينقص على أهل بيتها من واجباتها شيء، تلك واضحة تُرى بالعين المجرّدة لا يختلف عليها اثنان، البيت الذي يقصّر راعيه في تحمّل مسؤولية رعيّته لا يبدو رائقا مثل ذلك، الأم راع والأب راع، كلّ منّا في الحياة له رعيّته وعليه رعايتها ويا تعس حظ من ضيّع الرعايا ثمّ ندم.

سألتني عن حالي، عن أهل بيتي، عن حياتي، تريد أن أحكي لتحكي، ابتدأت الحديث وقالت: اسم والدتي شكيرة، اسمها شكيرة الله، رزقها الله من البنات ثلاثا، ولكلّ منّا قصتها وقسمتها ونصيبها في هذه الحياة الذي به رضيت ومعه تعيش.

كما ترين، أحيا حياة طيبة والحمد لله، يقوم زوجي على أمور البيت. لا ينقص علينا من حاجاتنا شيئا. لكنّ غصّة ترافقني أنّي لطالما تمنّيت أن أعمل بشهادتي كما أرى كثيرا من النساء يعملن. لطالما وجدت نفسي في زاوية حادة حين يحرجني يوسف متسائلا: هل قصّرت يوما بشيء؟ ماذا عن الأولاد؟ أولادنا يحتاجون أمّا رائقة المزاج قويّة البدن حين يرجعون ظهرا من مدارسهم. كيف ستتحمّلين الاستماع لأسئلتهم والصبر على ثرثرتهم وتلبية احتياجاتهم وأنت في نفس موعدهم عائدة معهم من عمل؟

لدينا مساعدة منزلية تساعدني في شؤون المنزل، ولدينا سائق أيضا. بدا لي في كثير من الأحيان محقا حين يسأل: لماذا؟

غدا يكبر الطفلان وأعمل، لن تركض منّي الحياة ولن يفوتني شيء لي، سأستطيع لحاقا بها يوما، الآن لا بدّ لي أن أركّز على مسؤوليّتي الحالية إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

أتعلمين يا أستاذة؟ أختاي لا تملكان مثل الزوج الذي أملك ولا أملك مثل ما تملكان، وكلّ منّا راضية بنصيبها، فهذه أرزاقنا في الحياة.

أختي الأولى زوجها طيّب محترم ولكنّ حاله الماديّ لا يساعد أن يعيشا دون أن تشاركه بالعمل، فبدلا من أن تطلبه وتلحّ عليه كما أطلب وأُلحّ وجدت نفسها ذات مسؤولية في الحياة مضطرّة أن تعمل مجبرا أخاك لا بطل، عملها لم يكن اختياريا يوما، تمضي الحياة بالرضا يا أستاذة، والله تمضي.

أختي الثانية، الأصغر، فتح الله لها فتوح العارفين، لديها عملها الخاص ودخلها الذي بارك الله لها فيه وأكرم، لكنّ زوجها لا يعمل، بعض الرجال مثل ذلك للأسف. شخص جيّد كإنسان ولكنّه لا يصلح مسؤولا ماديا عن بيت البتة، المفارقة في حكاية أختنا الصغرى أنها كانت تحبّه كما لا تحبّ امرأة زوجها في الكون كلّه، كانت متصالحة مع فكرة أنّ الدنيا أرزاق، وأنّ الله بدلا من أن يصبّ لهما رزقتين صغيرتين منفصلتين ويقسمها بينهما، شاء بحكمته أن يجعلها

رزقة كبيرة، كبيرة جدا تُصبّ في يمينها فحسب دفعة واحدة لتستطيع تسيير أمور ذلك البيت بالحكمة والمياسرة.

مثلما رزقها الله المال، رزقه حبها له لا يعدله أي مال، رجل مُعسر الحال مسكين، والدته مريضة وأسرته بالعموم فقيرة، تكفّلت أختي بمساعدتهم الشهريّة وبمتابعاتها الطبيّة بكلّ صدر رحب وفتحت بدلا من البيت بيوتا بالحب والرضا والإيمان، تمضي الحياة بالرضا يا أستاذة، والله تمضي. صدّقيني.

«هل لديكِ أخوات؟» سألتني.

«اثنتان أيضا»، أجبت.

قبل أن تسألني أن أحدّثها عن قسمتنا نحن الثلاثة أيضا وصل الطفلان. ضحكت نباتات الزينة، تبسّمت اللوحات، وانتهى بفيض من الحمد والرضا كوب شاي الزنجبيل.

رحيل الشاعر مظفر النواب

القدس عروس عروبتكم

انتقل إلى رحمته تعالى، الشاعر العراقي مظفر النواب، يوم الجمعة، 20 أيار (مايو) 2022. مظفر النواب صاحب إحدى أشهر القصائد التي تداولها الناس مسجلة على أشرطة كاسيت، فقد هجا فيها الزعماء العرب هجاء صريحا عندما قال: القدس عروس عروبتكم، فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها؟»

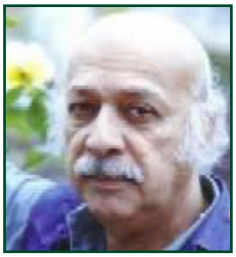

مقتطف من القصيدة

يا وطني المعروض كنجمة صبح في السوق
في العلب الليلية يبكون عليك
ويستكمل بعض الثوار رجولتهم
ويهزون على الطبلة والبوق
أولئك أعداؤك يا وطني
من باع فلسطين سوى أعدائك أولئك يا وطني؟
من باع فلسطين وأثرى بالله
سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام
ومائدة الدول الكبرى؟
فإذا أجن الليل تطق الأكواب بأن القدس عروس عروبتنا، أهلا أهلا

إصدار جديد بالإنجليزية: جهان حلو

المرأة الفلسطينية: المقاومة والتغيرات الاجتماعية

صدرت في أيار (مايو) 2022 النسخة الإنجليزية من كتاب «المرأة الفلسطينية: المقاومة والتغيرات الاجتماعية» للباحثة الفلسطينية، جهان حلو، الناشر: سبوكسمان بوكس، لندن. النسخة الورقية بالعربية صدرت في عام 2009. يضم الكتاب في نسختيه شهادات مناضلات وزوجات شهداء فلسطينيات تغطي فترة 1965-1985.

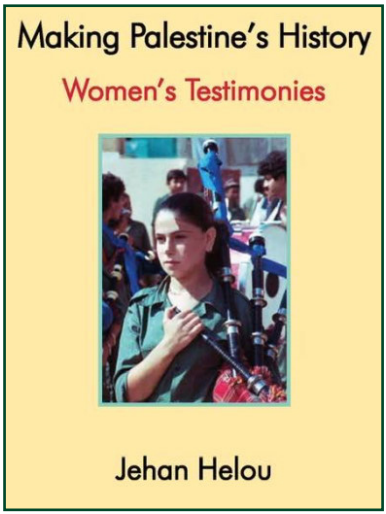

عنوان الكتاب بالإنجليزية:	Making Palestine's History Women's Testimonies
اسم المؤلفة بالإنجليزية:	Jehan Helou
رقم التصنيف الدولي:	9780851249056

إصدار جديد: محمد سعيد دلبح

المسكوت عنه في التاريخ: فصائل السلام

صدر للصحفي والكاتب الفلسطيني، محمد سعيد دلبح، كتاب جديد عنوانه «المسكوت عنه في التاريخ» وهو عن مجموعات رعاها الاستعمار البريطاني لفلسطين أثناء فترة «الانتداب» عليها، سماها «فصائل السلام» وكانت مهمتهم مساعدة السلطة الاستعمارية البريطانية على البحث عن المقاومين الفلسطينيين وقتلهم والتنكيل بهم وعائلاتهم. الناشر» دار الفارابي، بيروت، 2022.

مختارات: بيان نويهض-الحوت

الشهيدة ندى أبو غنيمة-اليشرطي

ندى [أبو غنيمة] اليشرطي: وحدها في الليلة الراجفة كانت الشهيدة

بيان نويهض [الحوت]

مجلة «شؤون فلسطينية». العدد 23. تموز (يوليو) 1973.

ويبقى الموت سر الحياة. يبقى أعظم الأسرار. ويبقى لك موت حكاية. يكون الموت أحيانا أكبر من الحكاية. وتكون الحكاية أحيانا أكبر من الموقت. وهنا تختفي ظلال الموت تحت أجنحة الحكاية. ينهزم الموت أمام ميلاد الحكاية. يلملم الموت تجارته. بعض رصاصات فارغة. بعض بقايا. يلملمها ويرحل. مهزوما يرحل. من غضب الناس ولعنتهم يرحل.

المناضلة الشهيدة
ندى أبو غنيمة-اليشرطي

هو في هذه المهمة ما كان سيدا. وما كان قدرا. وكل ما كان ليس قدرا. لا يهابه الناس. ينساه الناس، ويذكرون الحكاية.

* * *

كانت المدينة ساهرة. وهل تعرف مدينة إلى النوم سبيلا، وهي تحصي في ليلها شهداء النهار؟ وكيف تنام مدينة وهي تختف من رصاصة تخترق النوافذ أو الحواجز أو الأرواح الجريحة.

الناس في البيوت يهربون من حائط إلى حائط. يهدئون من روع الصغار. وخارج البيوت صمت رهيب. طرقات المدينة ليس فيها صدى خطو لأحد.

* * *

بساتين المدينة مقابر. بيوت المدينة معتقلات وسجون. سلطان المدينة هو الخوف من الموت. هو السيد الأكبر.

من يتحدى الخوف؟ من يتحدى السلطان؟

صوت جريء تحدى الخوف. وجه شجاع تصدى لصدفة الموت في كل لفتة. كصدف الريح يعبث بأوراق الشجر، فتسقط الأوراق التي يختارها الريح. ولا مرد لعبث الريح. ومشى الوجه الشجاع يتحدى. وما كان أكبر من التحدي.

ما كان أعظم أن يكون الصوت الذي ارتفع صوت امرأة!

كثير على الرجال في بلادنا أن يعرفوا التحدي، فكيف يجوز هذا لامرأة؟

كثير على الرجال في بلادنا أن يمارسوا الشجاعة، فكيف يجوز هذا لامرأة؟

وكيف يجوز بعد هذا السؤال؟ لماذا وحدها في المدينة الساهرة؟ لماذا وحدها في الليلة الراجفة كانت الشهيدة؟

* * *

أنت؟ أنت بين الرفيقات والرفاق. أنت في فجر هذه الثورة العظيمة. لم تعرفي اليأس يوما. لم تعرفي غير الأمل. غير الكبرياء والصمود. وبعض الناس يعشق الكبرياء، يدهشه الصمود من عيني امرأة.

وهنا —كانت ندى— وحدها تعرف طريقها. إن عملت شاركت من حولها عشرات في العمل. إن سهرت، طوال الليل تسهر. تطالع. تدرس كتلميذة لا همّ سوى الدرس لها.

إن رعت طفليها، كانت أكثر الأمهات حنانا. وإن حزنت ندى، إن حزنت، لم تدع أحدا يشاركها الحزن. وإن بكت ندى، لم تدع أحدا يشاركها البكاء.

* * *

الابتسامة للناس، لكل الناس. والحزن لها. كانت هي والكبرياء والصمود توائم. وكيف لا تحزن ندى؟ وكيف لا تبكي، وندى قد فقدت أغلى وأحلى مت

عرفته حيتها. فقدت رجلا، علما بين الرجال. ويوم اختارته ندى، ويوم اختارها، كانت فلسطين بينهما حديثا لا ينتهي. كانت فلسطين بينهما خريطة لعكا. شوارع عكا وحاراتها وبيوتها. هو يحكي، وهي تستمع.

* * *

أمل خالد كان في العودة إلى عكا. ومات خالد، وبقيت ندى ترعى الأمل. وماتت ندى، ولنا جميعا نحن الرفاق من بعدها، من بعد كل شهدي، وصية الثورة العظيمة: الأمل.

المناضل الشهيد
خالد اليشرطي

* * *

تلك كانت ندى. الوجه الباسم ضاحك. يطل سريعا. يختفي سريعا، كطلات الندى. والعمر جميل قصير كعمر الندى.

مع الفجر يطل الندى على البراعم والأزهار، ثم يحرقه وجه الشمس. لم يخلق الندى للصراع مع الشمس. لم يخلق الندى للبقاء ولا للحياة.

سر الكون في الندى زيارات وطلات سريعة، موعدها مع كل فجر، ورحيلها مع المجد كلما ارتفعت الشمس. وبين الرفاق ستبقى ندى هي الندى. ذكرها أريج وردة. كانت هنا. كانت هناك. كانت في لحديثة. كانت في المعركة. كانت ... ندى.

===

المصدر: مجلة «شؤون فلسطينية»، العدد 23، تموز (يوليو) 1973.

https://drive.google.com/file/d/1tUvFlPkcvQAbiPhjTO2DeBelL8z2JA4K/view

مختارات: هشام البستاني

الكيانات الوظيفية

أدناه مقتطف من كتاب «الكيانات الوظيفية: حدود الممارسة السياسية في المنطقة العربية ما بعد الاستعمار» للكاتب والباحث الأردني، هشام البستاني. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2021.

.

من يمثل المسألة: فلسطين أم الاستعمار الاستيطاني؟

عندما يتعلق الأمر بالاستعمار الاستيطاني لفلسطين، يبدأ النقاش غالبا من مدخلين مضللين: الأول ينطلق من اعتبارها «قضية» أو «مسألة» فلسطينية، فيقال «القضية الفلسطينية» أو The Palestinian Question؛ والثاني (وهو نتيجة للأول)، أن هذه القضية، أو المعضلة، أو المسألة، تحتاج إلى حل أو إجابة (solution)، ويتعلق الحل هنا — طبعا—بفلسطين، والفلسطينيين.

هناك إشكاليتان أساسيتان تتفرعان عن هذه المقاربة:

الأولى: أنها تبدأ من على ملعب الظالم وبقوانينه، وبهدف مسجل مسبقا في شباك المظلومين: «فلسطين» (الانتدابية) هي رؤية لاحقة على الاستعمار، ناتجة عنه، تثبّت نتائجه المتمثلة بخرائط الحدود الانتدابية التي تمهد لـ «إسرائيل»، وتجعل من الجغرافيات السياسية الأخرى الملحقة بها والناتجة عنها كيانات وظيفية، مفرغة من إمكانيات التحرر، ومرتبطة عضويا بالمآلات اللاحقة عليها (لا شرعية مجموعاتها الحاكمة، الأصيلة البنيوية، انعزاليتها وهوياتها الوظيفية، ارتباطاتها وتبادليّاتها الوظيفية).

والثانية: أنها فهم معكوس للموضوع، فالقضية أو المسألة التي تحتاج إلى حل، هي ليست «فلسطين» ولا الفلسطينيين، فهؤلاء (منذ ما قبل الجغرافية السياسية الانتدابية) هم الثابت، القار، المستقر، الموطن، الحالة التي دخل عليها القتل والطرد والتشريد والظلم والاضطهاد والتغيير. القضية التي تحتاج إلى معالجة، والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة، والمعضلة التي تحتاج إلى حل، هي الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وكيانه («إسرائيل»).

من هاتين النقطتين، يجب أن ننطلق لنناقش الأمر، ونعيد صياغة المنظور بما يتواءم مع زاوية نظر نرى من خلالها السياقات التاريخية التي أوقعت الظلم وانتهكت وشردت وقتلت واعتدت، وصنعت الجغرافيات السياسية ووظيفيّتها، لا من الزاوية التي نرى من خلالها النتائج، ونعيد تركيب الموضوع معكوسا، انطلاقا من النتائج، وممن وقع عليه كل ذلك. الأصل أن نذهب للمسبّب في مقاربات الحل، لا للـعَـرَض الناتج عنه، وإلا ستكون المحصّلة أن يتحول الـعَـرَض إلى سبب، وأن تتركز المقاربات في محاولة التعامل مع الـعَـرَض، الأمر الذي يثبّت السبب ويفاقمه، بل ويحوله إلى جزء من الحل.

مثلا: واحدة من أهم الأعراض الناتجة عن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، هي اللاجئون. فلنلاحظ كيف تحول اللاجئون الفلسطينيون إلى مشكلة تبحث عن «حل»، بينما تحول المسبّب إلى طرف ثالث وجزء من معادلة الحل، وهو انقلاب مفاهيمي كامل يتحول فيه الضحية إلى «مشكلة» (أو

مسألة أو قضية)، فيما يصير الجلاد ثابتا سياسيا وشريكا في صياغة الإجابة.

واحدة من هذه الإجابات عن السؤال الذي يحول الضحية إلى مشكلة، هي «الدولة الفلسطينية» التي ستُحل فيها قضايا عدة، منها «الكيانية السياسية» للفلسطينيين، و «الهوية»، و «الوطن»، وغيرها، وتقوم فيها الجنّة المفترضة للفلسطينيين المشردين في أربعة أنحاء الأرض، الذين يتعرضون لأشكال مختلفة من التمييز والاضطهاد، خصوصا في الكيانات الوظيفية العربية الأخرى.

هذه المقارنة، التي تأخذنا بعيدا عن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وكيانه «إسرائيل»، وتحاصر الضحية في زاوية البحث عن حلول لمعضلات لم تصنعها، وتطالبها بأن تجد حلا لأزمات لم تخلقها، غالبا ما تنحصر في إجابة من إجابتين، كلتاهما تأخذ شكل «الدولة»: الدولة الفلسطينية التي تقوم إلى جوار «إسرائيل»؛ أو دولة واحدة على كامل مساحة فلسطيني الانتدابية («الدول ثنائية القومية» أو «الدولة الديمقراطية العلمانية»).

تاليا، سأناقش التضليل القائم على الانطلاق من مفهوم معكوس، يطالب الضحية باجتراح الحلول لتصفية نفسه باعتباره مشكلة، والتضليل المركب عليه، الذي ينطلق من قاعدة أن «الدولة»-الكيان الوظيفي (أيا كان شكلها) هي الكفيلة بأن تكون الإجابة السحرية.

= = =

البستاني، هشام. 2021. الكيانات الوظيفية: حدود الممارسة السياسية في المنطقة العربية ما بعد الاستعمار. المجلد الأول: في الفرق بين الدولة والكيان الوظيفي: الجذور؛ الهوية؛ التبعية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص ص 135-137.

صخر

خدمة مجانية لتدقيق وتشكيل النصوص

أعلنت شركة الحاسوب والبرمجة «صخر» عن إطلاقها خدمة مجانية تهم الكاتبات والكتاب بالعربية، وهي خدمة تدقيق النصوص إملائيا ونحويا، ووضع حركات التشكيل على حروف الكلمات.

شجعت مجلة «عود الند» الثقافية الكاتبات والكتاب مرارا على تدقيق النصوص إملائيا باستخدام برامج التدقيق، كذلك المتوفر في برنامج وورد، ليس من منطلق الإيمان بأنها بديل لتدقيق الإنسان لما يكتب هو أو غيره، بل لأن البرامج تحدد لك كل الكلمات التي قد يكون فيها خطأ إملائي، وهذا ما تعجز عنه عين الإنسان. لذا، المدقق الآلي مجرد وسيلة تساعد الإنسان على القيام بعمله بشكل أشمل وأدق.

يمكن استخدام خيار تصحيح النصوص باستخدام الرابط التالي:

https://sahehly.com

أما خيار تشكيل الكلمات فهو على الرابط التالي:

(شكللي) لتشكيل وضبط النصوص العربية

https://tashkeel.alsharekh.org

عن لوحة الغلاف

الفنان هنري لايمان ساين

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي الأميركي، هنري لايمان ساين (Henry Lyman Sayen)، المولود في مدينة فيلادلفيا عام 1875. اللوحة معروضة في متحف سميثسونيان الأميركي، وصورتها متوفرة في موقع روبكسل ضمن ما يعرف بالنطاق العام، أي يمكن استخدامها دون الحاجة إلى موافقة مسبقة من أحد.

https://www.rawpixel.com/

هدية العدد

كتاب المجلات الثقافية الرقمية

احتفاء بمناسبة بدء مجلة «عود الند» الثقافية العام السابع عشر من النشر الثقافي الراقي، يسر هيئة تحرير المجلي أن تهدي الكاتبات والكتاب ومتابعات ومتابعي المجلة نسخة رقمية من كتاب د. عدلي الهواري «المجلات الثقافية الرقمية: تجربة عود الند». النسخة الورقية صدرت في عام 2019، وغطت ثلاثة عشر عاما من عمر المجلة، وشملت هذه الفترة صدور 120 عددا شهريا، واثني عشر عددا فصليا. يمكنك الحصول على نسخة رقمية بالضغط على صورة الغلاف أدناه حتى نهاية شهر حزيران (يونيو) 2022. [التحميل في موقع المجلة].

الصفحة الأخيرة

عود الند تبدأ عامها الـ 17

بصدور هذا العدد، الفصلي الخامس والعشرين، صيف 2022، تبدأ «مجلة «عود الند» الثقافية العام السابع عشر من النشر الثقافي الراقي، صدرت خلال عشرة منها شهريا (120 عددا)، ثم تحولت إلى فصلية (25 عددا حتى الآن)، وثلاثة أعداد إضافية خاصة.

منذ منصف العام الثاني من الصدور، حصلت «عود الند» من المكتبة البريطانية على الرقم الدولي للدوريات، والرقم الخاص بالمجلة هو: ISSN 1756-4212

لا تزال «عود الند» منبرا ثقافيا مميزا من ناحية الحرص على الجودة، والتعامل باحترام مع كاتبات وكتاب المجلة ومتابعيها، إضافة إلى كونها تصدر على أساس غير تجاري، وموقعها يخلو من القيود التي تفرضها مواقع كثيرة على تصفح المحتوى، ويخلو أيضا من كل أنواع الدعايات التي تستخدم في المواقع الأخرى، الثقافية منها وغير الثقافية، بغية الحصول على دخل من هذه الإعلانات التي من المعيب أن يظهر بعضها في أي موقع، كالإعلانات التي تتحدث عن جني أموال بسرعة، أو عن الزواج من نساء من جنسيات أجنبية.

مع مرور الأيام، لم يعد الدور المفيد الذي تؤديه مجلة «عود الند» الثقافية مقتصرا على نشر مواد جديدة كل ثلاثة شهور، بل أصبح لها دور رئيسي آخر، وهو دور الأرشيف الثقافي المفتوح الذي يأتي إليه من يبحث عن مادة للقراءة

أو مراجع للبحوث.

تصدر الأعداد الفصلية بصيغتين رقميتين، الأولى النصية التي تنشر في موقع المجلة ويمكن التفاعل معها بالتعليق عليها. والثانية بصيغة بي دي اف، أقرب الصيغ للنشر الورقة. ويتم تزويد المكتبة البريطانية بنسخة من الأعداد الفصلية الصادرة بصيغة بي دي اف، الأمر الذي يعني أنها ستظل متاحة في المستقبل لمستخدمي المكتبة، وهي من أقدم مكتبات العالم، ولها الحق القانوني في الحصول على نسخة مما ينشر من إصدارات في بريطانيا.

إضافة إلى ما سبق، لا تحصل «عود الند» على تمويل من أي جهة أهلية أو رسمية، ولا تسعى إلى ذلك. وكل ما يهمها هو أن تساهم في الارتقاء بمستويات البحث والكتابة باللغة العربية، وتوفير منبر لكل من يرسل مادة صالحة للنشر، دون أن أي اعتبار لمعرفة شخصية أو منصب. ولذا نشر في مجلة «عود الند» الثقافية المبتدئون والمحترفون.

تنشر «عود الند» وفق سياسة نشر معلنة، وملخصها نشر الجديد فقط، المرسل للنشر الحصري في «عود الند» مع ضرورة إرسال المواد من خلال النموذج الخاص بذلك في موقع المجلة.

https://www.oudnad.net

عـود الـنــد

مواعيد صدور الأعداد

العدد الفصلي 26 (خريف 2022): 1 أيلول (سبتمبر) 2022

العدد الفصلي 27 (شتاء 2023): 1 كانون الأول (ديسمبر) 2023

العدد الفصلي 28 (ربيع 2023): 1 آذار (مارس) 2023

العدد الفصلي 29 (صيف 2023): 1 حزيران (يونيو) 2032

«عـود الـنـد» فـي سـطـور

- صدر العدد الأول من مجلة «عـود الـنـد» الثقافية مطلع شهر حزيران (يونيو) 2006. وصدرت شهريا عشر سنوات مـتـتـالـيـة.
- حصلت «عـود الـنـد» من المكتبة البريطانية على رقم التصنيف الدولي للدوريات في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2007. الرقم الخاص بـ«عـود الـنـد» هو: ISSN 1756-4212
- شارك في «عـود الـنـد» كاتبات وكتاب محترفون ومبتدئون من الدول العربية والمهجر.
- بعد إتمام العام العاشر، وصدور 120 عددا شهريا، تقرر تحويل المجلة إلى فصلية.
- ناشر المجلة د. عدلي الهواري. له كتب بالإنجليزية، والعربية، من بينها:
- **الديمقراطية والإسلام في الأردن؛ تقييم الديمقراطية في الأردن؛ بيروت 1982: اليوم «ي»؛ اتحاد الطلبة المغدور؛ الحقيقة وأخواتها؛ المجلات الثقافية الرقمية.**

www.oudnad.net